الوهمُ

obeikan.com

الكتاب: الوهم
المؤلف: أنس يوسف حداد
الطبعة: الأولى٢٠١٤
رقم الإيداع: ١٩٤٥١ / ٢١٠٣
الترقيم الدولي: ٩ ـ ١٠ ـ ٦٤٤٥ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
إشراف عام: آية عفيفي
مراجعة لغوية: صهيب ابراهيم
غلاف: مي مجدي

كامل حقوق النشر والطبع محفوظة
دار الابداع للنشر والتوزيع
موقع دار الكتب الإلكتروني
العنوان : مدينة نصر – ٤٠ شارع أبو داود الظاهري
هاتف : ٠١٠٠٢٠٥٢٢٦٦
E-mail: info@daralkotob.com
www. daralkotob.com

obeikan.com

الوهمُ

"رواية "

تأليف: أنس يوسف حداد

موقع دار الكتب

obeikan.com

obeikan.com

الإهداء

إلى من أبت رُوحه النّقيّة أن تُطيلَ البقاء في هذا العالم الفاني؛ فرحل عنَّا قبل الأوان...

إلى من أمضى سنين عمره، وهو يُعطي بسخَاء...

إلى من غادر حجارة المساكن لتستقرَّ ذكراه العَطِرة في قلوبنا إلى الأبد...

إلى أبي -رحمه الله-

أُهدي عملي الرِّوائيّ الأوَّل...

obeikan.com

obeikan.com

تقديم

عالَمٌ مجنونٌ هذا الّذي نحيا فيه: قتلٌ ودماءٌ، دمارٌ وتهجيرٌ، سلبٌ ونهبٌ، غدرٌ وخيانةٌ، فقرٌ وجوعٌ، ألمٌ وأحزانٌ، كوارثُ طبيعيّةٌ وأخرى من صُنع الإنسان، والمصائب تحيط بنا من كلّ حدبٍ وصوب. أجل أمنيّاتنا في هذه الأيّام أصبحت أن ننعم ببعض الرّاحة والأمل؛ فنحن نحتاج إلى وقتٍ مستقطعٍ بعيدًا عن هذا الجنون المُطبق من حولنا، وإن كان لبضع ساعات فقط؛ فالكثيرون من بني البشر يحاولون الهروب في هذه الأيّام من واقعهم المرير باللجوء إلى عالم من الوهم والأحلام، عالمٍ خياليٍّ من صُنعهم يحاولون البقاء فيه أطول مدّةٍ ممكنةٍ، يدخلونه بإرادتهم، ويخرجون منه مُرغَمين، أمّا صاحبنا "خالد" -الّذي سيبحر بنا عبر أمواج الرّواية العاتية؛أملاً في أن يرسو بنا على شاطئ الأمان، أو ربّما يُغرقنا معه في بحر من الأوهام- قد دخل عالم الوهم مُرغماً، وسيُمضي جُلَّ وقته في صراعٍ مع الوهم، وسيبذُل كلّ ما في وسعه؛ من أجل الهروب

منه والعودة إلى عالم الواقع، لا لأنّ واقعه أفضل من واقعنا أو أجمل منه، بل لأنّ الوهم قد أوصله إلى حدّ الجنون، أو ربّما من المُنصف أن نقول: إنّه أدخله إلى أعمق أعماق الجنون؛ فقد حرمه من النّوم، وأفقده القدرة على التّركيز والعمل، ومنعه الأكل، وسلب منه كلّ أملٍ في أن ينال قِسطًا من الرّاحة. لقد أدّى به الوهم إلى الانهيار كلّيّاً. سيخوض معه أشرس المعارك، وسينتصر عليه تارةً، وينكسر أمام جبروته تارةً أخرى، سيستأسد في قتاله حيناً، ويخرّ أمامه على ركبتيه مستعطفًا ومستجديًا أحيانًا أخرى، سينهار ويبكي كالطّفل الصّغير، سيمرّ بأوقاتٍ عصيبةٍ، ويفقد كلّ أملٍ في الانتصار عليه.

هل سيتمكّن صاحبنا من الانتصار على عالم الوهم؟ هل سيعود إلى واقعه الّذي على الرّغم من قتامته إلّا أنه أكثر إشراقًا من عالم الوهم؟ هل سيجد من يقف جانبه في محنته، وهو من يحيا وحيدًا بعد أن فارق والده الحياة، واُضطرت والدته؛ للانتقال إلى العيش في بلدٍ آخر تاركةً قلبها وعقلها معه؟ هل سيصل، ويوصلنا وإياه إلى برّ الأمان؟ وغيرها من الأسئلة الّتي تحتاج إلى إجابة، لكنّي لن أطيل الكلام عليكم، ولن أمطركم بالمزيد من الأسئلة؛ فصاحبنا خالد المحاصر في داخل مقهى المدينة بسبب العاصفة الهوجاء قد بدأ يَضيق ذرعاً بثرثرتي، وينتظركم بفارغ الصّبر؛ ليفتح معكم فصول الرّواية، لكن قبل أن أترككم بصحبته لا بدّ لي أن أحذّركم من أنّ الأجواء في الدّاخل عاصفةٌ وممطرةٌ،

والسّبل مقطّعة، والعودة من داخلها إلى منازلكم قد تكون أمراً مستحيلاً. من سيقرّر منكم أن يُبحر مع خالد بين فصولها، فليفعل ذلك على مسؤوليّته الخاصّة دون أدنى مسؤوليّةٍ قانونيّةٍ تقع على كاتب هذه الفصول، وقد أُعذر من أُنذر...

القرار لكم...

obeikan.com

obeikan.com

تجاوزت الساعة العاشرة مساءً ولا زال المطر ينهمر بغزارة لم تشهدها مدينة عمان منذ عقود. اختفت الشوارع بشكلٍ شبه تام تحت سيول المطر، حتى بدت وكأنها أنهارٌ تجري بين بيوت المدينة القديمة. خَلَت الشوارع من السيارات والمارة وبدت المدينة كمدينة أشباح هجرها أهلها. جميع المحلات أغلقت أبوابها منذ ساعات ولجأ معظم الناس الى بيوتهم هربًا من غضب الطبيعة الذي تجلَّى بأعْتَى صوره في ذلك اليوم.

رياح عاتية اقتلعت الأشجار. أمواج من المياه دمرت في طريقها العديد من الأسوار القديمة، وحملت معها أطنانًا من الحجارة والطين التي جرفتها من جبال عمان المحيطة. أضواء الشوارع مكسرة والعتمة تلُف المكان كغطاءٍ أسود فُرِد فوق المدينة بأكملها. مقهى المدينة الذي غالبًا ما يكون مكتظًا بالزبائن في مثل هذا الوقت من الليل، كان شبه خاليًا باستثناء بعض الأفراد الذين تقطعت بهم السُّبل فآثروا اللجوء إلى دفء المقهى أملاً بأن تخف شدة الأمطار ويتمكنوا من العودة إلى منازلهم. تعلقت أعين جميع روَّاد المقهى بشاشة التلفاز القديم المعلقة على أحد جدران المقهى والذي تم ضبطه على قناة التلفزيون الأردني

الذي كان يبث بعض أغاني فيروز التي يتخللها بين الحين والأخر ظهور مقدم التلفزيون ليقرأ بيان من إدارة الأمن العام عن حالة الطرق في المملكة، أو بعض الأخبار التي كانت تصل من دائرة الأرصاد الجوية عن توقعات الطقس للساعات المقبلة.

الجميع يتابعون بقلق ما يجري خارج المقهى. باستثناء صوت فيروز القادم من التلفاز القديم يكاد الصمت يكون مُطبقًا على جميع أرجاء المقهى ولا يقطعه إلا صوت أحد الرواد وهو يتحدث على الهاتف مستعلمًا عن أحوال أهل بيته وبعض عبارات "الله يستر" و "رحمتك يارب" التي كان يطلقها أحد رواد المقهى كلما زمجرت الرياح في الخارج، أو دَوَى صوت الرعد معلنًا عن موجة جديدة من الأمطار. طلبتُ من العامل الوحيد المتواجد في المقهى فنجان قهوة بدون سكر فبادرني بنظرة استغراب شديد وكأني قد قُمت بطلب مشروب من كوكبٍ أخر وقال باستهجان:

- " فنجان قهوة بدون سكر؟!".

ثم غادر المكان ليعود بعد دقائق حاملاً فنجان القهوة وكوب ماء و وضعهما على الطاولة التي كنت أجلس إليها في زاوية المقهى ثم غادر دون أن ينبس ببنت شفة. لم أكترث كثيرًا بسلوك عامل المقهى فقد كنت مشغولاً عن كل ما يجري حولي بأفكاري المشتتة بين ما حصل اليوم معي

في العمل والالتزامات المالية التي بدأت تثقل كاهلي في الأشهر الأخيرة. لم أكتشف سبب استغراب العامل إلا عندما قمت بطلب فاتورة الحساب لاحقًا لأتفاجأ بأنني قد قمت بشرب عشرة فناجين من القهوة في خلال الساعات التي قضيتها هناك. كنت أجلس هناك وأنا اشعر بضيقٍ شديدٍ وكأن جميع أبواب العالم قد سُدَّت في وجهي في ذلك اليوم. مِنفَضَة السجائر أمامي لم يَعُد فيها مكان حتى لعود ثقاب. يبدو أنني قد أحرقت أكثر من مائة سيجارة دون أن أنتبه لذلك فقد كنت في ذلك الوقت موجودًا فقط بجسدي أما ذهني فقد كان شاردً في مكان آخر.

قبل انتهاء موعد العمل بقليل طلب مني مدير الشركة التي أعمل بها منذ عدة سنوات الحضور إلى مكتبه. فور دخولي غرفة المكتب الخاصة به طلب مني إغلاق الباب والجلوس إلى مقعدٍ أمام طاولته الممتلئة بالأوراق والملفات المتناثرة وكأن عاصفة قوية قد ضربت مكتبه فتناثرت الأوراق في مختلف أرجاء الغرفة الفارهة. اعتلت وجهه نظرة غريبة لم أعهدها من قبل ولم أتمكن من تحديد ماهيتها، واحترت فيما إذا كانت نظرة غضب أم قلق أم حتى نظرة حزن وأسف. مرَّت بضع دقائق دون أن ينظر إليَّ أو يتفوه بكلمة فقد أمضى الوقت في تقليب بعض أوراق ملف كان يحمله بيده.

حاولت أن أسترق بعض النظرات أملاً في أن ألتقط بعض ما هو مكتوب في تلك الأوراق، لكن كل محاولاتي باءت بالفشل حيث أنه كان يخفيها بحذر داخل الملف الذي في يده. بعد بضع دقائق مرت وكأنها سنوات نظر إليَّ بنوعٍ من الاستحياء ثم بادرني بالقول "أخي خالد" وقبل أن يكمل كلامه شعرت بأن شيئًا ما ليس على ما يرام، فللمرةِ الأولى يخاطبني بكلمة "أخي" ناهيك عن أنها المرة الأولى التي يطلب مني فيها إغلاق باب الغرفة. كنت أجلس هناك أنتظر أن يُكمل حديثه كمحكوم بالإعدام ينتظر أن يهوي السيف على رقبته ليفصل رأسه عن جسده. كنت أجلس في المقهى في تلك الليلة المشؤومة شارد الذهن متفكرًا بالحديث الذي دار بيننا في ذلك المساء. استرجعت خلال تلك الساعات شريط الأحداث التي مرت بي خلال ذلك اليوم، تذكرت كيف أنني استيقظت في ذلك الصباح وأنا أشعر بالانقباض في داخل روحي وعدم رغبة في مغادرة سريري أو التوجه إلى العمل. للمرة الأولى ينتابني هذا الشعور فغالبًا ما أستيقظ في الصباح بسعادةٍ ورغبةٍ في التوجه سريعًا لإنجاز الأعمال العالقه.

استرجعتُ ردة فعلي الغاضبة على مديري بالعمل فور إنهاء كلامه معي. لا بد أنني قد كِلتُ له عشرات الشتائم التي لم أتخيل يومًا أنني يمكن أن أتفوَّه بها. شعرت ببعض الندم على طريقة تصرفي معه في ذلك المساء فقد كانت تربطني به علاقة جيدة منذ عدة سنوات. لم يطل

شعوري بالندم طويلاً فسرعان ما اختطفتني هواجس الحياة من تلك الأفكار. حاولت أن أقوم بحساب الالتزامات المالية التي تأخرت عن دفعها. أجرة البيت لأربعة شهور، فاتورة الماء، فاتورة الكهرباء، فاتورة الهاتف، قسط السيارة، المبالغ التي اقترضتها من صديقي سالم، المبالغ المستحقة لصاحب البقالة الطيب الذي لم يبخل علي يومًا بكل ما احتاج إليه دون أن يحاول ولو لمرة واحدة تذكيري بأنني مَدِين له بمبلغ لا بأس به من المال. متى سأتمكن من تسديد كل هذه الالتزامات؟ أو ربما يجب عليَّ التساؤل هل سأتمكن يومًا من تسديدها؟ كيف؟ ومن أين؟

زادني التفكير في كل تلك المستحقات شعورًا بالضيق حتى أحسست بأن جدران المقهى المتهالكة استعادت عافيتها وبدأت بالإطباق عليَّ بكل قوة من الجهات الأربعة. أجد صعوبة في التنفس، نبضات قلبي تتسارع، أشعر بضعفٍ عامٍ في كل أنحاء جسدي وبالكاد استطيع أن أرى من هم حولي وكأنهم تحولوا فجأة إلى أشباح أو أخيلة بعيدة. كل شيء حولي اكتسى بالبياض وبدأت أدخل رويدًا رويدًا إلى عالمٍ آخر.

أحسست بأني قد دخلت في فضاءٍ مطلقٍ متسعٍ بشكلٍ لا يمكن وصفه. موسيقى عذبة تملأ الأرجاء، رائحة الزهور تفوح من كل مكان، أصوات ملائكية تردد أعذب الأغاني وتمجد الخالق وأنا أحلق كالطائر

وسط هذا الفضاء الرائع. لقد زال كل الألم الذي كنت أشعر به قبل قليل ولم أعد أشعر بالضيق. أين أنا وكيف انتقلت إلى هذا المكان؟ هل مِتُ؟ هل هذا هو الفردوس الموعود؟ لا بد أنه كذلك. ولكن، لما أنا وحيد ههنا!

لا يمكن أن يكون هذا هو الفردوس؟ إذًا لا بد أني سافرت عبر الزمن وبدون أن أشعر انتقلت إلى عالمٍ آخر. الهواء ههنا عليل وأنا استنشقه بفرح وبلا عناء. آه ما أجمل هذا المكان! كم أشعر بالسلام والاطمئنان هنا، إنها قمة التناقض أن يتواجد الإنسان في مكان غريب وبعيد ورغم ذلك يشعر بهذا القدر من الراحة والسلام والطمأنينة. مهلاً أين اختفت رائحة الزهور، وما هذه الرائحة الكريهة التي تتسلل عبر أنفي؟ أسمع أصواتًا غريبةً حولي والألم بدأ يعود إلى صدري وها أنا أرى أخيلة روَّاد المقهى من جديد. رائحة بصل! ياه .. بصل! لماذا اختفت رائحة الزهور، ولماذا تبدل الهواء العليل بهواء ثقيل مشبع برائحة السجائر.

بدأت أستعيد وعيي وفتحت عيني لأجد شخصًا غريبًا يضع قطعة بصل أمام أنفي ومعظم رواد المقهى متحلقين حولي والقلق بادٍ على وجوههم. أحسست بأحدهم وهو يربت على كتفي ويقول حمدًا لله على سلامتك، وأخر يصرخ بوجهي بغضب "هذه نتيجة كثرة استهلاك القهوة

والدخان". عبارات كثيرة يرددها من حولي لكني لم أستطع التقاط معظمها فلا زلت أشعر بالوَهَن وقلة التركيز. لقد فقدت وعيي لعدة دقائق وكان كل من حولي يحاول إعادتي إلى واقعي الكريه من جديد. أهٍ كم كرهتهم! لماذا أعادوني إلى هذا العالم؟ لماذا لم يتركوني مستمتعًا حيثُ كنت؟

بعد أن أُطمئن الجميع على سلامتي عادوا إلى مقاعدهم الخشبية واستأنفوا أحاديثهم مع عدم إغفال متابعة التلفاز.

استغرقت بعض الوقت كي أدرك ما حدث لي ثم عدتُ من جديد إلى هواجسي وقلقي. عدت للتفكير في ما سأفعل لأتجاوز هذه الأيام الصعبة وكيف سأتمكن من تجاوز هذه المحنة؟. شعرت بتعبٍ شديدٍ وبنُعاسٍ مستشري ورغبة لا تقاوم في النوم. نهضتُ من مقعدي وتوجهتُ نحو نافذة المقهى لاستطلع الأوضاع في الخارج. لا زالت الأمطار تهطل بشدة وأوضاع الطرق لا تسمح بالسير عليها. لم أشعر يومًا بمثل ما أشعر به الآن من رغبةٍ بالعودةِ إلى منزلي الصَّغير، الذي كنت دومًا أحاول أن لا أعودُ إليه إلا للنوم. ما هذا الحنين الذي يملأني لمنزلي المتواضع! لمقعدي الوحيد في غرفة الجلوس الضيقة، لسريري الملتصق بالجدار من شدة ضيق المكان، لمائدة الطعام الخشبية التي تبدو من شدة قدمها وكأنها قطعة تم انتشالها من تحت انقاض منزل تَهدَّم إثر قصف جوي

خلال الحرب العالمية الأولى. جُدران المنزل المتصدعة بدَت لي في تلك اللحظة أجمل من جدران قصر الإليزيه، ونافذته الصغيرة التي تطل على حائط المبنى المقابل بدَت لي وكأنها شُرفة فارهة تَشرُف على حديقة سنترال بارك، آهٍ كم أريد أن أعود إلى منزلي لألقي برأسي على وسادتي التي تحجرت من شدة القدم.

عُدت إلى مقعدي في زاوية المقهى كمهزومٍ فرَّ من ساحةِ المعركةِ فأوضاع الطقس في الخارج قتلتُ أي أمل في العودة إلى منزلي في ذلك الوقت. مددتُ يدي إلى عُلبة السجائر لإخراج سيجارة أخرى ولكن العلبة كانت فارغة فقد استهلكت كل السجائر دون وعي مني. شعرت بالغضب والضيق لنفاذ سجائري ووجهت بصري إلى الأعلى مُعاتبًا ربِّ السماء... "يا ألله، ماذا فعلت كي أستحق كل هذا العقاب، هل اقترفتُ ذنبًا عظيمًا كي تقوم بمعاقبتي بهذا الشكل؟". صوتٌ في داخلي وبَّخني متسائلاً .. "ماذا تفعل أيها المغفل؟ أتعاتب العلي القدير؟ هذا كفر، إيه والله كفر"عدت إلى وعيي مستغفرًا الله على ما بدر مني وأُفلتت دمعة ساخنة من سياج عيني دون أن أتمكن من أن أحبسها.

لم أكن أعلم في تلك اللحظة، هل هي دمعة ندم أم دمعة حزنٍ على ما آل إليه حالي. أغمضت عيني للهروب من الواقع الذي كنت أحياه في تلك الساعة وأسندت رأسي إلى الجدار خلف مقعدي لكن صوت الرعد الذي

دوى قويًا في تلك اللحظة أجبرني على أن أفتح عيني من جديد. كان هناك طفل صغير غاية في الجمال يجلس على الطاولة التي أمامي، نظرت إليه باستغراب فبادرني بابتسامةٍ غاية في الروعة والبراءة. لا بد أني أتخيل فلا يُعقل أن يكون هناك طفل في هذا المكان وفي هذا الوقت وفي ظل الظروف الجوية الحالية. لا بد أني لم أستعِد وعي بالكامل بَعد.

أغلقت عيني مرةً أخرى لإبعاد هذا الوهم عن مخيلتي ولكن عندما عاودت النَّظرَ مرَّةً أخرى كان لا يزال يجلس على الطاولة وبادرني من جديد بنفس الابتسامة الرائعة. بادلته الابتسامة بابتسامةٍ وأنا لا أزالُ غير مُصدق لما أرى. نظرت حولي باحثًا عن والديه فربما يكونوا هم أيضا قد تقطعت بهم السُّبل فلجأوا للمقهى هربًا من هجوم الأمطار في الخارج لكني لم أجد أحدًا في الجوار. مد يده الصغيرة لي وبدون شعور مني مددت له يدي فقام بوضع كَفِّه في كفي. انتابني شعور غريب بالراحة والاستغراب في آنٍ واحد، فأنا فعلا استطيع أن ألمس يده وأشعر بدفئها، إذًا لا بد أنه فعلا موجود وأنا لست أتوهم بوجوده، ولكن من أين جاء؟ وكيفَ استطاع تسلُّق الطاولة المرتفعة قُرابة المتر ونصف المتر عن الأرض؟

لم تمضِ سوى لحظات لأبدأ باللعب مَعَهُ متناسيًا كلُّ ما حولي. أمضينا بعضًا من الوقت في اللَّعب معًا بسعادةٍ منقطعةِ النَّظير أزالت

أي أثر للضيق في نفسي. لم أشعر منذ زمن بمثل هذه السعادة ولم أضحك منذُ سنواتٍ بالشكل الجنوني الذي كنت أضحكُ به. مدَّ الطفل يده إلى النظارة التي على عيني منتزعًا إياها بكل خفةٍ وقام بإلقائها على الأرض. انحنيتُ متكاسلاً لالتقاطها وأعدتها إلى مكانها على عيني فعاد والتقطها من جديد. نظر إليَّ نظرة تحدي وهو يُمسك بها مُهددًا بأن يُلقي بها على الأرض مجددًا. أشرت له بإصبعي محذرًا إياهُ من إلقائها ولكنه لم يكترث لي وإعاد الكرَّة بإلقائها، تناولتها من جديد ووضعتها على وجهي لكنه عاد وانتزعها بسرعة وألقى بها على الأرض ولكن هذه المرة قفز من الطاولة بسرعة البرق بعد إلقائها وهبط إلى الأرض وقام بركلها بعيدًا عني. نهضتُ من مقعدي وتوجهت لالتقاطها وهو ينظر إلي بفرحٍ لا يخلو من الاستهزاء. انحنيت لألتقط نظارتي وعندما وقفت عائدًا إلى مكاني لم يكن موجودًا هناك.

يا له من لعين! أين يختبئ الأن؟ لا بد أنه في مكان ما هنا، وسيعاود محاولته لانتزاعها عن وجهي من جديد. نظرت حولي بكل حذرٍ فأنا عازمٌ هذه المرَّة على الانتصار عليه ومنعه من تحقيق مراده لكني لم أجد اثرًا له. رُحت ابحث عنه في كل أرجاء المقهى وعندما لم أجده توجهت إلى سُلَّم المقهى الداخلي باحثًا عنه، هبطت درجات السلم على عَجَلٍ حتى كِدتُ أسقط على وجهي. تجرأت على فتح الباب الزجاجي وألقيت نظرةً

إلى الخارج لكن لا أثر له. عُدت إلى المقهى من جديد وعندما لم أتمكن من أن أجده، توجهت إلى عامل المقهى المتجهم وسألته مترددًا:

- هل تعلم أين ذهب الطفل الذي كان على طاولتي قبل قليل؟

نظر إليَّ باستغرابٍ قائلاً: طفل! أي طفل؟ هل جننت؟ من المجنون الذي سيقوم باصطحاب طفلا معه إلى المقهى وفي هذه الظروف؟ عُد إلى كرسيك واسترح إلى أن تتمكن من العودة إلى المنزل، لا بد أنك مرهق جدًا لدرجة أنك بدأت تتخيل أمورًا غير واقعية.

أدار ظهره لي وعاد لممارسة عمله وهو يضحك وقد سمعته وهو يردد "طفل! هنا! في هذا الوقت!".

شعرت بغضبٍ شديدٍ وأردت أن أوجه له ركلة تلقي به على الأرض لكني تراجعت عن ذلك خوفًا من أن أكون أيضًا أتوهم أنه يردد تلك العبارات. عدت إلى مقعدي أكاد لا أصدق ما حدث. هل من الممكن لبعض فناجين من القهوة وعدد من السجائر الرخيصة أن تفعل ذلك بعقل الإنسان؟ هل فعلاً أنا أتخيل هذه الأمور؟ يا إلهي! هل بدأت أصاب بالجنون؟ لا بد أنه التعب والإرهاق مصحوبًا بقلة النوم في الأيام الماضية مع الإسراف في استهلاك القهوة والسجائر كل هذا قد أكثر على قدراتي العقلية وبدأت أتخيل بعض الأمور الوهمية.

وجهت بصري إلى التلفاز وحاولت أن أصرف عني تلك الأوهام بالتركيز على متابعة نشرة الأخبار التي كانت تُبث في ذلك الوقت. لم يمضِ سوى بضع دقائق حتى عدت من جديد للتفكير في ذلك الطفل اللعين متسائلاً هل فعلا كان موجودًا أم أنني قد تخيلت الأمرَ بمجمله؟ ولكن ماذا عن دفء يده الذي شعرت به لحظة وضع كفه في كفي؟ وماذا عن نظارتي التي انتزعها عن وجهي عدَّة مرات؟ انتزعت النظارة عن عينيي وبدأت أتفحصها عسى أن أجد عليها أي أثار لخدوش قد تكون قد حدثت عندما قام بإلقائها على الأرض وركلها. كان هناك مجموعة من الخدوش على عدسات النظارة. فرحت قليلًا وشعرت بنوع من الارتياح حيث أنَّ هذه الخدوش تثبت أني لم أكن اتخيل. لكن مهلاً ربما هذه أثار خدوش قديمة فأنا أمتلك هذه النظارة منذ ما يزيد عن سنتين وقد أوقعتها عدة مراتٍ ولم أقم يومًا بتفحصها كي ألحظ هذه الخدوش.

عاودني الشعور بالضيق وأحسست بأن هذا المكان قد بدأ ينال من أعصابي ولا بد لي من المغادرة في الحال. قمت بطلب فاتورة الحساب من عامل المقهى الكريه فنظر إليَّ بنوعٍ من الاستهجان ثم كال لي سيل من الأسئلة:

لماذا تريد فاتورة الحساب الآن؟ هل تريد أن تغادر؟ ألا ترى أوضاع الجو في الخارج؟ هل تعتقد بأنك ستتمكن من الوصول سالمًا إلى منزلك؟

شعرت بحنق كبير زادني إصرارًا على مغادرة المكان ووجهت كلامي لذلك الشخص البغيض الذي لم أعد أطيق رؤويته أو سماع صوته: فقط أحضِر لي فاتورة الحساب ودعني أذهب من هنا وللعلم فأنا أفضل الموت في الخارج على البقاء في مكان يتواجد فيه شخص مثلك، فأنا لم أرَ في حياتي إنسان بمثل سماجتك وثقل دمك. ما لك ومالي إن كنت أريد أن أغادر المقهى أم لا! أنت تعمل هنا وما عليك سوى تنفيذ ما أطلبه منك وعندما أطلب منك إحضار فاتورة الحساب، فما عليك إلا تنفيذ ذلك دون توجيه الأسئلة ثم أنت مالك ومال أهلك إذا وصلت إلى بيتي سالمًا أم لا؟

غادر عامل المقهى المكان وعاد بعد لحظات حاملا الفاتورة وقام بوضعها على الطاولة قائلاً: تفضل يا أستاذ. تناولتها باشمئزاز وأخرجت من جيبي قيمة القاتورة ووضعتها على الطاولة ثم غادرت المكان على عجل، قمت بفتح الباب بغضبٍ وخرجت إلى الخارج غير مكترث بشدة الرياح وكثافة المطر فكل ما أردته في تلك اللحظة هو الابتعاد بسرعة عن هذا المكان. لم تمضِ سوى لحظاتٍ حتى أصبحت مبللًا بالكامل وبدأت المياه تُقطر من كل أنحاء جسدي ولكني لم أكترث وواصلت طريقي مقاومًا الرياح العاتية التي كانت تحاول بكل ما أوتيت من قوة بأن تدفعني إلى الخلف لكنَّ إرادتي بالابتعاد عن هذا المكان كانت أقوى منها بكثير.

وصلت إلى المرأب الذي كنتُ قد ركنتُ فيه سيارتي وقد ارتفع مستوى المياه فيه حتى وصلت إلى مستوى باب السيارة. اقتربتُ مسرعًا وقمتُ بفتح الباب فإذا بالمياه قد تدفقت إلى داخلها وقامت بتغطية الأرضية بالكامل. قلتُ لنفسي لا يهم إن كانت السيارة مليئة بالماء أم لا؟ كل ما يهمني الآن أن يدور محركها وتنطلق بي إلى المنزل. وضعت مفتاح التشغيل في مكانه وأدرته وأنا أدعو الله أن لا تخذلني تلك السيارة القديمة. لم تنجح محاولتي لتشغيل السيارة فكررت المحاولة مرَّة ثانية وثالثة ورابعة ولكن دون جدوى لكني لم أرغب بالاستسلام وعاودت المحاولة مرَّة أخرى ولحُسن الحظ اشتغل محرك السيارة. شعرت بتلك اللحظة بفرح يفوق فرح طفل حصل على هدية مميزة في صباح العيد. لم أرغب بإضاعة المزيد من الوقت فقمتُ بوضع قابض السرعة على الغيار الأول ووضعت قدميَّ على دواسة البنزين فانطلقت السيارة تتهادى فوق المياه. توجهت نحو شارع الملك طلال والسيارة تموج وعجلاتها تقاوم تيارات المياه المتدفقة وقد كنت أمسك بعجلة القيادة بكلتا يدي بكل قوة لكن ذلك لم يمنعها من الانحراف إلى اليمين حينا وإلى اليسار حينًا آخر. قد كنت أسمع أصواتَ ارتطام الحجارة وبعض أغصان الأشجار التي كانت تطفو على سطح الماء بأسفل السيارة وبجوانبها دون أن أبدي أي اهتمام بما كان يحدث فالمهم ان السيارة تمضي في طريقها.

انعطفت يمينًا على شارع الملك طلال متوجها نحو الدوار الثالث في جبل عمان. كان القلق يراودني من احتمال تعطل السيارة بسبب كثرة المياه وقد كنت أدعو الله أن أتمكن من الاستمرار في طريقي دون أن تتوقف السيارة. استطيع أن أرى قاعة المدينة على يساري ثم شيئًا فشيئًا بدأت أشعر بانخفاض قوة مقاومة المياه لعجلات السيارة، ومع البدء بصعود الطريق تلاشت المقاومة بشكل شبه كامل فمستوى المياه على الطريق المنحدر قد كان قليلاً. شعرت بنشوة الانتصار في ذلك الوقت وتذكرت عبارات صديقي "سالم" عندما ذهبنا لاستلام السيارة قبل بضعة شهور من مَعرِض بيع السيارات. لا زالت كلماته تتردد في أذني: ما هذه السيارة القديمة؟ هل فعلا قد قمت بشراء قطعة الخردة هذه؟ والله يا صديقي سيارتك هذه أشبه ما تكون بمنظمة الأمم المتحدة فكل قطعة فيها قد تمَّ صنعها في بلد مختلف وقد أطلق ضحكة مدوية في ذلك الوقت سعيدًا بعباراته. كم أرغب الآن لو كان موجودًا معي! ليرى كيف أن قطعة الخردة -على حسب وصفه لسيارتي- تسير في ظِل أعتى الظروف وتعبر بي إلى بَرِّ الأمان بكل اقتدار. يا هل ترى، ماذا يفعل سالم الآن؟ لا بد أنه يجلس في منزل عائلته الفارَّة في منطقة عبدون يرتدي تي شيرت وشورت قصير كعادته دون أن يلحظ برودة الطقس في الخارج فمنزلهم مزود بأحدث أنظمة التدفئة المركزية ومفروش بأثمن أنواع الأثاث المستورد من مختلف أنحاء العالم الغربي وأرضه تغطيها

عشرات قطع السجاد العجمي. إذا كانت سيارتي تُمثِّل عُصبة الأمم المتحدة فماذا نقول إذًا عن منزله المليء بقطع الأثاث والتحف الأثرية، التي تم جمَّعها من مختلف أصقاع العالم؟ بدأت أشعر بتباطء سرعة السيارة بشكل ملحوظ، فمستوى المياه عاد للارتفاع مع وصولي منطقة الدوار الثالث.

كان الشارع شبه خالٍ باستثناء بعض سيارات الدفع الرباعي التي كانت تمخر عباب الشارع بكل ثقة وشرطي المرور المسكين الذي وقف تحت المطر موجهًا السيارات نحو الدوار وقد أغلق مدخل النفق بدراجته النارية لمنع السيارات من دخول النفق الذي كان غارقا تماما بمياه الأمطار التي تجاوز ارتفاعها مترًا أو يزيد. قمت بالالتفاف ببطء نحو الدوار الثاني الذي لم يختلف حاله عن حال سابقه فالمياه قد ملأت النفق وقام شرطي آخر دفعه حظه العاثر لأن يكون مسؤولًا عن توجيه السيارات إلى خارج النفق نحو منطقة الدوار الأول في ذلك اليوم، للوقوف تحت شلالات المطر المنهمرة من فم السماء. كانت السيارة تسير بي ببطء شديد ومع وصولي منطقة الدوار الأول واقترابي من الكلية العلمية الإسلامية -وهي من أقدم المدارس في مدينة عمان- بدأت السيارة بالارتجاج بشدة وزاد تباطؤها. دستُ على دواسة البنزين بقوة لكن لم يجدي ذلك نفعًا واستمرت السيارة بالتباطء ثم قررت ان تتوقف فجأةً رافضة الاستمرار في السير غير مكترثة بأمري وبدء الدخان يتصاعد من

محركها. ما هذا الحظ العاثر؟ ألم يكن بإمكانها الاستمرار بالسير بضعة كيلومترات أخرى حتى أصل إلى منزلي؟ ترجلت من السيارة وقمت بركلها بغضب "ألم يكن بإمكانك إكمال معروفك؟ فعلاً أنك قطعة خردة" عندما فقدت أي أمل بإعادة محرك السيارة للحياة قمت بدفعها بكل ما أوتيت من قوة حتى تمكنت من ركنها على قارعة الطريق.

جلت بنظري في المكان باحثًا عن أي مساعدة أملا بأن أجد مجنونا أخر غيري دفعه جنونه للخروج من منزله في ذلك الوقت، لكني لم أجد أحدًا. فقد تركني القدر وحيدًا في ذلك المكان أصارع الأمطار والرياح. ماذا أفعل الأن؟ ربما عليَّ اللجوء إلى إحدى المحلات التجارية المنتشرة على جانبي الطريق، لكن فكرتي قد تم إجهاضها سريعًا فجميع المتاجر مغلقة. هل أقوم بطرق باب أحد المنازل المجاورة طالبًا اللجوء هربًا من غضب الطبيعة؟ تخيلت وجه سالم وابتسامة السخرية تعتلي وجهه وأنا اخبره أن سيارتي تعطلت وأني لجئت إلى أحدِ الغرباء طلبًا لحمايته من الأمطار. لابد أنه سيكون في غاية السعادة وأنا أخبره بذلك ولا بد أنه لن يتردد في أن يقول لي بشماته: لقد قلت لك أنها قطعة خردة لكنك لم تستمع لكلامي. تخيلي لمدى سعادة سالم وشماتته دفعني لاتخاذ قراري بأن أحرمه من تلك النشوة وقررت أنه لا بد لي من السير على الأقدام متوجهًا إلى منزلي فلا تفصلني عنه سوى بضعة كيلومترات ومن استطاع الوصول إلى هنا لا بد من أنه قادر على السير إلى المنزل. فكرة الوصول

إلى المنزل وإشعال مدفأة الغاز والجلوس ملتصقًا بها لامتصاص الدفء من شعلتها الضعيفة ومتابعة التلفاز وأنا أرتشف كأسًا من الشاي الساخن، لبث الدفء في جوفي زادني عزمًا على الاستمرار بطريقي نحو المنزل.

ما أغرب الإنسان! فإن يصبح أَسمَى آماله في الحياة الوصول إلى مكان طالما كرهه وكان يحاول الابتعاد عنه قدر استطاعته لأمر يدعو للاستغراب والدهشة. قمت بإغلاق معطفي بإحكام ولففتُ وشاحًا وجدته في المقعد الخلفي للسيارة حول وجهي مغطيًا معظمه حتى بدوت كلصٍ يستعد لعملية سطو على مصرف ثم سرتُ في طريقي متشبثًا بجدران المتاجر حينًا وبالأشجار العارية حينا آخر، محاولا بكل قوتي أن لا ادع الرياح الغاضبة تدفعني إلى الخلف. لم يكن الأمر سهلاً فعندما رأت الرياح تصميمي على عدم التراجع عمدَت بكل حيلة إلى محاولة نزع الوشاح عن وجهي فمددت يدي وأمسكته كي لا تنتزعه، فما كان منها إلا أن بدأت برفع معطفي معرّضةً الجزء السفلي من ظهري لسياطها اللاسعة من شدة البرد. وبدون تفكير تركتُ الوشاحَ محاولًا إعادة معطفي إلى مكانه فهجمت الرياح على وشاحي ونزعته بسرعة لأراه وهو يطير بعيدًا عني والحسرة تملأ قلبي. لا بد أني أغفلت غدر الرياح في تلك اللحظة فقامت بدفعي بقوة مرسلة بجسدي إلى الأرض الغارقة بالمياه.

استجمعت قواي وحاولت النهوض ممسكًا بسياج حديدي وضعه أحد أصحاب المتاجر حول جذع شجرة زيتون مزروعة في وسط الرصيف، حتى تمكنت من الوقوف من جديد. واصلت طريقي والبرد يصفع أذنيي حتى بدا لي بأنهما أصبحتا قطعة جليد ولا بُد أنهما ستسقطان عن جانبي رأسي في أي لحظة. استغرقت الرحلة من الدوار الأول إلى الحي الذي أقطن به بالقرب من شارع الرينبو ما يربو على الساعة ونصف الساعة، لم تدخر خلالهما الرياح والأمطار جهدًا في دفعي حيناً ومحاولة إسقاطي حينًا آخر.

وصلت إلى الدَّرَج الذي يقود إلى منزلي، فإذا به قد تحول إلى شلال من المياه المتدفقة بقوة. ذكرني منظر المياه المتدفقة على الدَّرج بشلالات "ماعين" في جنوب الأردن والتي كنت قد قمت بزيارتها منذ عدة سنوات خلال مشاركتي فى رحلة مدرسية خلال دراستي -في المدرسة الثانوية- إلى ذلك الموقع الرائع. آهٍ كم أتمنى لو أني هناك الآن! استمتع بدفء المياه المعدنية الحارة المتدفقة من باطن الجبل. كم استمتعت مع صحبي في ذلك اليوم المشمس! ونحن نلهو بالمياه كالأطفال ويقوم كلٌّ منَّا برشق الآخر بالمياه بسعادة بالغة. لم يُكَدِّر صفو ذلك اليوم الرائع سوى صرخة أطلقها شابٌ في مقتبل العمر كان يحاول تسلق صخور الشلال فانزلقت قدمه وسقط إلى أسفل الشلال مُطلِقًا صرخةً مدوية.

لقد كان سالم الذي يكبرني بنحو عام و كان طالبًا بإحدى مدارس عمان الخاصة في ذلك الوقت يقوم أيضًا بزيارة المكان مع بعض زملائه في المدرسة وبينما كانوا يجلسون مستمتعين بالشمس الدافئة حول حوض السباحة قرَّر أن يبتعد عنهم محاولا تسلق المنحدر الصخري الذي يتدفق الشلال فوقه، لكن الحظ لم يسعفه في الارتفاع كثيرًا حيث أنه انزلق بقوة نحو الأسفل. فور سماعي لصرخته توجهت نحوه مسرعًا مستفسرًا عن حاله فبادرني بالقول أنه لا يستطيع تحريك قدمه. قمت وبمساعدة زميل آخر لي -لا يحضرني اسمه الآن- بمساعدته على الخروج من تحت الشلال وأجلسناه على حافة المنحدر وهو يمسك بقدمه اليسرى ويتلوى من شدة الألم محاولاً كتم تأوهات الألم بكبرياء.

أردت الذهاب إلى كاونتر استقبال الفندق الوحيد الموجود في ذلك المكان لأطلب منهم المساعدة لكن سالم أوقفني قائلاً "لا داعي لذلك فقط لو سمحت أحضر لي حقيبتي" وأشار بيده لحقيبة سوداء كان قد تركها بالقرب من المنحدر.

توجهت مسرعًا إلى المكان الذي أشار إليه وأحضرت الحقيبة. تناولها من يدي وقام بفتحها وأخرج جهازًا غريبًا من داخلها وقام بالضغط على بعض الأزرار الموجودة فى ذلك الجهاز الغريب ثم وضعه على أذنه وبدأ بالتحدث إلى أحدهم ثم أزاحه عن أذنه وعاد للإمساك بقدمه. لم أنتبه

لما قاله أو مع من كان يتكلم فقد كنت مشغولًا بمحاولة استكشاف ماهية ذلك الجهاز الغريب. أردت ان أسأله عن الجهاز، وماذا يكون؟ لكني كبتتُ جموح فضولي كَون الوقت غير مناسب. اكتشفت بعدها بأن هذا الجهاز ما هو إلا عبارة عن جهاز هاتف نقال وأنه قد بدأ بالانتشار بين أبناء الطبقة الراقية في تلك الأيام. لم أكن قد رأيت هاتفاً نقالا من قبل، فنحن طلبة المدارس الحكومية كنا نحيا في عالم آخر في تلك الأيام وكان اتصالنا بعالم التكنولوجيا شبه معدوم. لم تمضِ سوى بضعة دقائق حتى جاءَ زملاء سالم ليساعدوه على الوصول إلى بهو الفندق بانتظار سائق السيارة التي أقلتهم والذي علمت فيما بعد أنه السائق الخاص الذي يقل سالم إلى المدرسة وأي مكان آخر يرغب بالذهاب إليه.

قبل أن يغادر سالم المكان توجه بنظره نحوي مُقدمًا شكره لي وقام بطلب رقم هاتفي النقال، لكني لم أفهم في ذلك الوقت ما كان يريد حتى قام أحد زملائه بتفسير الكلام لي. شعرت بنوع من الحرج بسبب جهلي وبادرته بالقول انا لا أملك هذا الجهاز الغريب وسألته، إن كان يملك قلمًا في حقيبته كي أدوّن له رقم هاتف المنزل والذي اصبحت أعلم لاحقًا أنهم يُطلقون عليه اسم الهاتف الأرضي كي يميزونه عن جهازهم الغريب القادم من الفضاء.ابتسم سالم وقال لي لا عليك سأقوم بتخزين رقمك في هاتفي النقال.

غادر سالم ورفاقه المكان وهوغير قادرعلى المشي وعدت أنا وأصدقائي للهو بالماء ونحن نتحدث عن مدى جهلنا فيما توصل له العلم في مجال الاتصالات. بدأت بتسلق الدَّرج المؤدي إلى منزلي متلمسًا خطواتي بحذر كون المياه المتدفقة كانت قد اخفت جميع معالمه. تمكنت بصعوبة بالغة من الوصول إلى باب منزلي الذي كان يعتليه الصدأ وقمت بفتحة بعد صراع مع الريح التي كانت تقوم بدفع يدي كلما حاولت إدخال المفتاح في شق الباب.

دخلت مسرعًا وأقفلت الباب خلفي بكل ما بقي في جسمي من القوة بعد هذه الرحلة الشاقة وألقيت بنفسي على المقعد وقد خارت قواي بالكامل حتى لم أعد قادرًا على الحركة. أمضيت على حالي هذه بعضًا من الوقت إلى أن بدأ البرد يتسرب إلى عظامي بسبب برودة الطقس من ناحية وملابسي المبللة من ناحية أخرى، فاضطررت مرغمًا على النهوض من مقعدي لإشعال المدفئة وتبديل ملابسي. أعددت كأسا من الشاي وجلست إلى جانب المدفأة متدثرًا بغطاء من الصوف أحتسي الشاي وأتابع التلفاز. بدأ الدفء يعود إلى جسدي رويدًا رويدًا واستعدت الشعور بأطرافي بعد أن كنت فقدت الإحساس بها من شدة البرد.

آه، ما أجمل العودة إلى المنزل! شكرت ربي على عودتي سالماً لمنزلي بعد يوم مليء بالأحداث والصعاب. لم يمضِ عليَّ طوال حياتي يومًا أصعب

من هذا اليوم. أمضيت ساعةً من الوقت جالسًا في مكاني بلا حراك وكأني شرنقة تغفو على غصن شجرة بانتظار الخروج إلى العالم الخارجي. بدأت أشعر بالنُّعاس، فقد مضى عليَّ ما يقرب من أربعٍ وعشرين ساعةً دون أن أحظى بأي قسط من النوم، فقررت الذهاب إلى سريري لكن الرياح والأمطار عادت وتآمرت عليَّ من جديد قاطعةً أسلاك الكهرباء في الخارج مما اضطرني للذهاب للبحث عن بعض الشموع في درج خزانة المطبخ. التقطت شمعة وقمت بإشعالها فأنارت المكان حولي مما ساعدني على إطفأ المدفأة وإيجاد طريقي إلى سريري. ألقيت بجسدي على السرير وعلى الرغم من صوت الأمطار وهي تُطرق زجاج النافذة ودوي الرعد في الخارج إلا أنني ذهبت في نوم عميق على الفور؛ فالإرهاق الذي كنت أعاني منه كان أقوى من أي إزعاج في الخارج، وأكاد أُجزم أنني في تلك اللحظة كنت قادرًا على النوم حتى لو كنت في ساحة معركة محتدمة.

خُيِّلَ إليَّ بأن هناك من يقرع باب منزلي بقوة ففتحت عيني وألقيت نظرة حولي فإذا بالظلام يملأ كل أرجاء الغرفة. لا بد أني أحلم. عدت إلى النوم من جديد، لكن صوت قرع الباب عاد من جديد وبشكل أقوى من السابق. ما هذا الحلم المزعج؟ حتى أحلامي تتآمر عليَّ الأن لتمنعني من النوم بعد كل ما عانيته في هذا اليوم. نهضت من سريري لاستطلاع الأمر، فإذا بأحدهم يقرع باب منزلي بعنف. لا بد أنه أحد الأشخاص قد

تقطعت به السبل وقرر اللجوء إليَّ هربًا من جنون الطبيعة. يا لتدابير القدر!

قبل ساعات كانت فكرة اللجوء لأحد المنازل تراودني والآن ها هو أحدهم يلجأ إليَّ. توجهت إلى الباب وما إن فتحته حتى انفجر سالم صارخًا في وجهي بغضب: يا أخي وينك، لقد كنت أحاول الاتصال بك منذ يومين وأنت لا تُجب، ما بالك؟ ماذا جرى لك؟ لقد أقلقتني عليك يا عديم الإحساس.

دعوته للدخول وأعددت بعض القهوة وجلسنا معًا وهو يمطرني بالشتائم ومختلف أنواع الأسئلة: أين كنت لقد حاولت الاتصال بك عدة مرات ولم تجب فقمت بالاتصال بالشركة التي تعمل بها فأخبروني بانك لم تحضر للعمل ولم تقم بالاتصال بهم للاعتذار. هل أنت بخير؟ لماذا لا تجب على هاتفك؟ يا أخي إذا كنت لا ترغب بالحديث معي على الأقل طمني عليك.

- نظرت إليه باستغراب وقلت له هل تحاول المزاح معي؟ كيف اتصلت بالشركة وأجابوك واليوم الجمعة وهو يوم إجازة؟

رمقني حينها بنظرة غضب والشرر يكاد يتطاير من عينيه "فعلًا إنك واحد مهستر، اليوم السبت يا فطحل زمانك"

- ماذا اليوم السبت! لا بد أنك مخطئ، اليوم الجمعة. أدرت التلفاز لأتأكد من اليوم، خوفًا من أن يكون هذا مقلب جديد من مقالب سالم المتعددة. فعلاً أنه يوم السبت. كم الساعة؟

- الساعة الثانية بعد الظهر يا كسول.

- مستحيل! مستحيل! هل فعلاً قمت بالنوم ما يزيد عن ثلاثين ساعة متواصلة دون أن أشعر.

بحثت عن هاتفي النقال -نعم فأنا الآن لم أعد جاهلًا بالتكنولوجيا كالسابق فأنا أملك هاتفًا نقالًا وجهاز لاب توب- لكني لم أجده. لا بد أنه في جيب معطفي، بحثت في جميع جيوب المعطف الذي لا زال مبللاً لكني لم أجده.

- سالم هل يمكنك الاتصال على هاتفي فأنا لا أعلم أين وضعته.

حاول سالم الاتصال بهاتفي كما طلبت منه لكن الهاتف كان مغلقًا، لا بد ان بطاريته قد نفدت. عاودت البحث عنه في كل أرجاء المنزل دون جدوى. لا بد أنني قد تركته في السيارة. تذكرت في تلك اللحظة أنني تركت سيارتي بعد أن تعطلت على قارعة الطريق بالقرب من الكلية العلمية الإسلامية. ماذا حدث لها يا هل ترى؟ لا بد أن المياه قد جرفتها

وهي الأن محطمة بالكامل. قطع صوت سالم علي أفكاري ... "وين شارد يا أستاذ".

- آهٍ يا سالم لن تصدق ما حدث لي بالأمس! عفوًا في يوم قبل أمس. لقد كان يومًا عصيبًا بكل المقاييس.

- ها خبّرنا ماذا صار معك؟ ما أنت قصصك ما بتخلص، ومن يوم يومك بتدور على المصايب دوارة.

- اسمع يا سالم أنا مش ناقصك، احكي معي بأدب بلاش أقلع لسانك من مكانه.

لا بد أنه احس بأني أمر بوقت عصيب فبادرني بالاعتذار عن ما بدر منه. وأحسستُ أيضًا بأنني قد وجهت له كلامًا غير لائق خاصة وأنه قد تكبد عناء القدوم إلى منزلي للاطمئنان عليَّ فقدمت له الاعتذار وبدأت أقص عليه أحداث ذلك اليوم وهو يستمع إلي بكل انتباه. بعد أن انتهيت من إخباره بتفاصيل ما حدث معي من لحظة دخولي مقهى المدينة إلى لحظة عودتي للمنزل -دون ان أخبره عن الطفل الذي رأيته في المقهى أو على الأقل تخيلت أني رأيته كي لا يقوم بالاستهزاء بي- نظر إليَّ بنظرة أحسست منها بأنه قد تأثر فعلاً بما حدث لي ووجه إليَّ كلامه قائلاً:

- لا بد من محاولة الاتصال بمديرك والاعتذارإليه عن عدم التحاقك بالعمل، وحاول أن تشرح له الظروف التي مررت بها.

- أجبته: ليس هذا بالأمر المهم الآن.

أحسست أنه أراد أن ينفجر في وجهي في تلك اللحظة ليوبخني على عدم اكتراثي بالعمل خاصة وأنه يعلم مدى حاجتي له لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة خوفًا من أن يغضبني، قلت له "لا تقلق سأخبرك لاحقًا بما حدث معي في العمل يوم الخميس الماضي، فهذه قصة أخرى ليس الآن الوقت المناسب لها".

توجهت نحو النافذة وألقيت نظرة إلى الخارج لاستطلاع الأحوال. كانت الرياح قد هدأت والأمطار توقفت إلا أنَّ الجو كان لا يزال ملبدًا بالغيوم. الأمر الذي منع أشعة الشمس من الوصول إلى الأرض فبدت الدنيا في الخارج معتمة بعض الشيء. سألت سالم"كيف أوضاع الطرق في الخارج؟ هل من الممكن الخروج من المنزل؟ فأنا لم أتناول الطعام منذ الأمس بل قل يوم قبل أمس ولا يوجد لدي في المنزل ما يصلح للأكل"

أجابني بأن الأمورَ في الخارج جيدة وليس هناك ما يمنعنا من الخروج. استقلينا سيارة سالم ذات الدفع الرباعي وتوجهنا نحو أحدِ المطاعم في

شارع الوكالات في منطقة الصويفية. طلبت من سالم التوقف بقرب أحد محلات البقالة لشراء بعض السجائر فلقد استهلكت كل مخزوني من السجائر وأنا اجلس في المقهى.

كانت الطريق سالكة بصعوبة وأثار العاصفة كانت لا تزال بادية في مختلف أرجاء المدينة والمياه كانت لا تزال تتدفق في الشوارع ولكن منسوبها بدأ بالانخفاض عن الأيام السابقة. على امتداد الطريق كانت الأشجار عارية تمامًا من أوراقها والكثير منها قد تكسرت أغصانها، أغصان متقطعة وملقاة على الأرض، أعمدة الهاتف قد انحنت أو اقتلعت من مكانها، الحجارة والطين تملأ الشوارع، المياه بدأت تفيض كنوافير من شبكات تصريف مياه الطرق التي عجزت عن استيعاب كميات المياه الهائلة، الشوارع قد تشققت وامتلأت بالحفر، أجهزة أمانة عمان و وزارة الأشغال تعمل جاهدة على إزالة المخلَّفات بكل نشاط. العديد من النساء يعملن على تنظيف شرفات المنازل في الوقت الذي خرج فيه الرجال لتفقد أسطح المنازل أو تفقد الأضرار التي لحقت بمنازلهم ومحالهم التجارية. بعض المتاجر عادت لافتتاح أبوابها وبدأت الحياة تعود إلى المدينة ببطء. لقد بدت مدينة عمان في ذلك المساء كورشة عمل يقوم كل فرد فيها بعمله بكل اقتدار فالجميع مصمم على تجاوز آثار الأيام الماضية وإعادة الروح للمدينة. مشهد رائع للتآزر الاجتماعي كنا قد بدأنا نفتقده في لجة تسارع الحياة.

بعد أن انتهينا من تناول طعامنا وتبادل بعض الأحاديث توجهنا نحو منطقة الدوار الأول في جبل عمان لتفقد أحوال سيارتي -أو قطعة الخردة خاصتي كما يحلو لصديقي أن يدعوها- كانت السيارة لا تزال في المكان الذي ركنتها فيه ولكنها كانت شبه مغطاة بالطين. اتخذت مكاني في كرسي السائق وجلس سالم في المقعد الآخر وحاولت إدارة المحرك وتفاجأت بأن الحياة عادت لمحرك السيارة من المحاولة الأولى. حاولنا تنظيف الزجاج والمرايا الجانبية قدر استطاعتنا ثم ودعني سالم بعد أن اطمئن أني سأتمكن الآن من العودة إلى المنزل مستقلاً قطعة الخردة خاصتي. قدت سيارتي على مهلٍ متوجهًا إلى المنزل ولكن بعد أن قطعت بضع مئات من المترات، لاحظت بأن مؤشر الحرارة قد ارتفع بسرعة جنونية. توقفت على جانب الطريق وفتحت غطاء المحرك ثم قمت بفتح غطاء مبرد المياه (الراديـاتور) لأتفقد مستوى المياه. كان المبرد خاليًا تمامًا من المياه. يا لسخرية القدر ففي الوقت الذي تملأ المياه فيه كل أرجاء المدينة نفدت المياه من سيارتي!

تناولت زجاجة مياه من صندوق السيارة الخلفي وملأت خزان المبرد بالماء ثم اكملت طريقي. بدأت حرارة السيارة بالانخفاض قبل أن تعاود الارتفاع من جديد عندما اقتربت من المنزل. قمت بركن السيارة على جانب الطريق أسفل الدرج المؤدي إلى منزلي وتوجهت إلى البقالة المجاورة لشراء بعض الحاجيات وفي طريق عودتي إلى المنزل توقفت

لتفقد مياه مبرد السيارة مرة أخرى لأجد أنها قد نفدت تماما من جديد. لا بد أن الحجارة المنتشرة في الطريق قد أعطبت المبرد محدثةً ثقبًا به تتسرب المياه من خلاله.

انتابني شعور بالإحباط والغضب في تلك اللحظة فقد بدا لي أن الله قد تخلى عني تمامًا خلال الأيام الماضية فبدأت المصائب تحيط بي من كل حدب وصوب. تذكرت عبارة سالم حين قال لي: *"طول عمرك بتدور على المصايب دوارة"*

وتمتمت قائلًا : *"والله يا صاحبي المصايب هيه اللي بتدور عليَّ كإن ما في حد غيري بالدنيا"*.

استعدت رباطة جأشي بعد إن كنت قد بدأت أفقدها وفتحت باب السيارة باحثًا عن هاتفي النقال وبعد بحث مستفيض وجدته مُلقًا على أرض السيارة أسفل مقعد السائق. تناولته من مكانه وتوجهت إلى المنزل أملاً في نيل قسط من الراحة. قمت بتبديل ملابسي وتوجهت إلى المطبخ لترتيب الأشياء التي اشتريتها من البقالة. هذا الذي كان ينقصني الآن! لقد نسيت الأشياء في السيارة. ما الذي يحدث معي فكل شيء يسير عكس التيار! ارتديت معطفي فوق ملابس النوم وتوجهت نحو السيارة لإحضار الأشياء وأنا أشعر بالإحباط من كل شيء في الحياة، فقد أصبح أقل شيء يصيبني بالإحباط والغضب مهما كان صغيرًا أو تافهًا. فقدت

كل رغبة بالحياة في ذلك الوقت ولم أعد أرغب بالقيام بأي شيء فتوجهت إلى سريري محاولاً الخلود للنوم على الرغم من أن الساعة لم تتجاوز الثامنة مساءً بعد.

جافا الكرى عيوني في ذلك المساء وبقيت في سريري متقلبًا من جانب في السرير إلى الآخر دون أدنى أمل في أن أتمكن من النوم، فتارة أفكر في سيارتي المعطلة وما يجب علي أن أفعله بها، وتارةً أخرى أوجه افكاري نحو الأقساط المتراكمة عليَّ وقد زادني التفكير في الحديث الذي دار بيني وبين مديري في العمل إحباطًا ففي مساء يوم الخميس المشؤوم ذلك دعاني مديري إلى مكتبه وقال لي بكل برود:

"أخي خالد، لقد مرَّ على عملك معنا ثلاثة أعوام قد كنت خلالها مثالاً للموظف الملتزم والمجد ولم تقصر يومًا في أيٍّ من المهام الموكلة إليك، لكن كما تعلم فنحن منذ ما يزيد عن العام نُعاني من آثار الأزمة الاقتصادية العالمية وقد فقدنا خلال العام الماضي العديد من المشاريع التي كنا نأمل أن نتعاقد عليها، الأمر الذي انعكس على السيولة المالية في الشركة. لقد اجتمع مجلس الإدارة في الأمس وقام بإعادة تقييم وضع الشركة والإجراءات اللازم اتباعها من أجل خفض التكاليف حتى تتمكن الشركة من الاستمرار في السوق. لقد ناقشنا العديد من الحلول الممكنة وحاولنا قدر استطاعتنا عدم المساس بموظفي الشركة لكن الوضع

أسوأ بكثير مما كنا نتوقع وإذا لم نقم باتخاذ اجراءات جذرية الآن ستكون العواقب وخيمة وقد نضطر إلى إغلاق أبواب الشركة نهائيًا.."

قاطعته بشيء من النزق، فقد بدأ خطابه المطول يصيبني بالملل:

- أستاذ مالك، أرجو أن تقوم باخباري بقرار الشركة دون داعي لهذه المقدمة المملة فأنا أشعر بأنك تحاول إخباري خبرًا غير سار. *نظر إليَّ باستغرابٍ ثم أكمل حديثه قائلاً:* "حسنًا لن أطيل عليك، لقد اتخذ مجلس الإدارة قرارًا بتخفيض أعداد الموظفين في الشركة وعلى الرغم من كل محاولاتي بالإبقاء عليك إلا أن مجلس الإدارة أصرَّ على قراره وللأسف فإن اسمك مُدْرَج على قائمة الموظفين الذين قررت الشركة الاستغناء عن خدماتهم."

انفجرت في تلك اللحظة في وجهه قائلاً: يا لك من منافق، وعندما رأيت آثار الدهشة من ردة فعلي بادية عليه كررت كلامي نعم منافق، لا تحاول أن تقنعني بأن الشركة لا تستطيع الإبقاء عليَّ ولا تقُل لي بأنه لا علاقة لك بهذا القرار وأنك قد حاولت إقناعهم بالإبقاء عليَّ فمن غير المعقول أن مجلس الإدارة لا يستأنس برأيك قبل اتخاذ قرار بهذه الأهمية وإذا كان فعلا لا يأخذ برأيك فهذا يعني أنك (طرطور في الشركة) على أي حالٍ أنا لا استغرب هذا الأمر فانت طول عمرك جبان ولا تملك قرارك وكل ما يهمك هو أن تحافظ على كرسيك وعلى مرتبك. ألم تجد غيري

للاستغناء عن خدماته في الوقت الذي يوجد في الشركة عشرات الموظفين الذي لا يبذلون ربع الجهد الذي أبذله في العمل. أهكذا تكافئني بعد كل ما قدمته للشركة، فعلاً أنك إنسان بلا ضمير ولا تمتلك أدنى درجات المروءة. طبعًا لم تجد غيري فالموظفين الآخرين إما أقاربك أو يعملون جواسيس لك وينقلون أخبار زملائهم لك لحظة بلحظة. حاول تهدئتي ببعض الكلمات المعتادة:

- أنا أقدر شعورك أخي خالد ولكني أقسم لك أن لا ناقة لي ولا جمل في هذا القرار. أنا موظف في الشركة مثلك تماما ولا بُد لي من تنفيذ قرارات الشركة لكن لا تقلق فلن يتم تنفيذ القرار مباشرة فقد قررت الشركة منحك مهلة ثلاثة أشهر للبحث عن عمل آخر وأنا متأكد بأنه لن يكون صعبًا على شخص يملك مؤهلاتك وخبرتك بالعمل من إيجاد عمل آخر بسهولة.

لم أعد قادرًا على الاستمرار بالاستماع لكلام ذلك المنافق فغادرت مكتبه دون استئذان وأنا أُكيل له الشتائم التي لا أذكر معظمها مغلقًا الباب خلفي بكل قوة. نهضت من سريري وتوجهت إلى المطبخ وأعددت كأسًا من اليانسون مع العسل فجدتي رحمها الله كانت دائمًا تقول: إن خير علاج للأرق هو كأس من اليانسون الساخن المحلَّى بالعسل. فرغت

من شرب اليانسون وتوجهت إلى سريري من جديد واعتقد أن علاج جدتي قد أفادني وساعدني على النوم.

رنَّ جرس ساعة المنبه في تمام الساعة السادسة صباحًا معلنًا بدء يوم جديد. آملُ أن يكون أكثر إيجابية من الأيام السابقة. نهضت من سريري متكاسلاً فالبرد كان قارصًا داخل الغرفة بالشكل الذي يتمنى معه الإنسان البقاء متدفئًا في السرير وخطر لي أن أبقى في المنزل في ذلك اليوم. تغلبت على كسلي بجهد وقمت بارتداء ملابسي وغادرت المنزل بعد احتساء بعض القهوة الساخنة. هبطت الدرج وصولاً إلى المكان الذي ركنت سيارتي به وألقيت نظرة أسفٍ على الحال الذي آلت إليهِ ثم توجهت سيرًا على الأقدام نحو شارع الرينبو واستقليت سيارة أجرة من هناك إلى مكاتب الشركة. للمرة الأولى أشعر بأني غريب في هذا المكان فلقد فقدت الشعور بأنني أنتمي إليه الآن، خاصةً وأنني أعلم أنني سأغادره مرغمًا بعد ثلاثة شهور. ألقيت تحيةَ الصباحِ على زملائي وجلست إلى طاولتي دون أن أتحدث مع أحد. لاحظ مدير الشركة حضوري فقد كان كعادته يراقب حركة الجميع من خلال باب مكتبه المفتوح إلى النصف فنهض من مكانه متوجهًا نحوي. حمدًا لله على سلامتك، لقد افتقدناك بالأمس ودون أن أرفع نظري نحوه بل أعتقد أنني قد قمت أيضًا بإشاحة وجهي إلى الناحية المعاكسة له قلت: الله

يسلمك وبالنسبة ليوم أمس بإمكانك اقتطاعه من رصيد إجازاتي السنوية. وعدت لمواصلة عملي متجاهلاً وجوده تمامًا.

لا أعلم من أين جاءتني القسوة كي أعامله بالأسلوب الذي عاملته به، ويبدوا أنه أراد أن يجنب نفسه المزيد من الإحراج خاصة وأنَّ باقي الزملاء كانوا يراقبون مايدور بيننا بكل انتباه فغادر المكان عائدًا إلى مكتبه دون أن ينبس ببنت شفة. عند منتصف اليوم تقريبًاً رنَّ هاتفي النقال، فإذا به سالم يطمئن على أن أموري بخير وأنني وصلت سالمًا بالأمس إلى منزلي. أجبته بأن أموري جيدة وأخبرته عما حدث للسيارة بعد أن ودعني أمس. أبدى أسفه لسماع ذلك وعرض عليَّ أن يمر عليَّ بعد العمل كي يقلني إلى المنزل. شكرته على ذلك وأخبرته بأنني سأعود إلى المنزل مستخدمًا سيارة أجرة لكني لم استطع الصمود أمام إصراره على المرور بي بعد العمل فوافقت على ذلك. أقفلت الهاتف وأنا أقول في داخلي، من الجميل أن يكون للمرء أصدقاء يهتمون بأمره. كانت علاقتي مع سالم قد توطدت بعد لقائنا الأول في حمامات ماعين.

فبعد نحو شهر من سقوطه في الشلال قام بالاتصال بي ليشكرني على مساعدتي له في ذلك اليوم وقام بدعوتي لاحتساء القهوة معه في أحدِ المقاهي واستمرت لقاءاتنا بعد ذلك ولكن على فترات متباعدة، ازدادت وتيرتها بعد التحاقي بالجامعة فقد شاءت الأقدار أن نلتحق

بنفس الجامعة ولكن في كليتين مختلفتين فلقد قرر الالتحاق بكلية تجارة الأعمال لكي يتمكن بعد التخرج من متابعة أعمال والده وشركاته المتعددة أما أنا، فقد كنت قد التحقت بكلية الهندسة لدراسة تخصص الهندسة الصناعية. بعد التخرج التحقت بالعمل بالشركة التي أعمل بها الآن منذ ثلاث سنوات. استمرت علاقتي بسالم طوال تلك السنيين على الرغم من الفارق الطبقي بيني وبينه. فعلى الرغم من انتمائه لعائلة من العائلات الغنية في عمان إلا أن ذلك لم يؤثر في علاقاته الإنسانية. فهو شخص في غاية التواضع ومحب للناس ناهيك عن أنه وَفِيّ ومخلص جدًا لأصدقائه. كثيرًا ما كان يقوم بزيارتي في منزلي الذي أقطن به الآن لنمضي الليل بتبادل أطراف الحديث وقد كان دوما يقول لي بأن منزلي يشعره بالراحة وأنه لا يشعر بالاسترخاء إلا عندما يقوم بزيارتي على الرغم من جميع سبل الراحة المتوفرة في منزله ولا زلت اذكر ردُّه علي في أحدِ المرَّات عندما قلت له "لديك كل ما يمكن أن يحلم الانسان به في منزلك لكنك غالبًا ما تقول بأنك لا تشعر بالراحة إلا في منزلي المتواضع! "هناك يا خالد أشعر أنني في فندق أو مُتحف ولا أُخفيك بأني أشعر بأننا غرباء، على الرغم من أننا نتشارك نفس المنزل؛ أما هنا فأنا أشعر بأني في منزل حقيقي".

أنهيت عملي على الساعة الخامسة وقمت بترتيب أوراقي ونهضت متوجها نحو الباب. لا بد أن ذلك أثار فضول زملائي حيث أن أحدهم قال

ممازحًا: ماذا يحدث في الدنيا، خالد يغادر العمل في الوقت المحدد! لا بد أنها نهاية الدنيا. نظرت نحو الشخص الذي أطلق التعليق وابتسمت له ابتسامة لم يكن من الصعب عليه أن يميز بانها مصطنعة ومتكلفة. كان سالم بانتظاري في الخارج فصعدت إلى السيارة وشكرته على قدومه كي يقلني إلى المنزل، نظر نحوي قائلاً:

إذا لم تتوقف عن شكري كل مرة أراك فيها فأنا من سأقوم بانتزاع لسانك من مكانه فأنت تثير أعصابي من كثرة ما توجه لي من عبارات الشكر، نحن أصدقاء والأمر الطبيعي أن يساعد أحدنا الآخر؛على كلِّ حالٍ شكرًا لك على شكرك لي، وشكرًا لك أنك أجبت اتصالي اليوم وشكرًا لك لأنك قدمت لي القهوة في منزلك بالأمس، وشكرًا لك .....

- حسنًا حسنًا؛ لقد وصلت الرسالة لن اشكرك على أي شيء مرَّة أخرى ولماذا اشكرك فما تقوم به هو واجبك نحوي كصديق والآن انطلق بي إلى المنزل.

أطلق سالم ضحكة سريعة فلا بد أن التغيُّر المفاجئ في مزاجي وأسلوب كلامي قد راقه ولا أعلم لماذا؟ انطلقت بنا السيارة نحو المنزل، توقفنا أثناء رحلتنا بأحد مقاهي القهوة الأمريكية وتناولنا كوبين من القهوة السوداء (الأمريكانو).

في أثناء جلوسنا في المقهى سألني سالم إذا ما كنت أرغب بأن نحضر معنا ميكانيكي سيارات للكشف على سيارتي وكانت هذه المرة الأولى التي يدعوها سيارة لا قطعة خردة كعادته. لم أكن أشعر برغبة في فعل أي شيء في ذلك اليوم لذلك أخبرته بأنني سأهتم بأمر السيارة لاحقاً. سألني بعد ذلك إذا ما كنت اشعر برغبة بالحديث عن ما حدث معي في العمل في يوم الخميس الماضي، فلقد كنت أخبرته بالأمس بأني سأخبره بذلك لاحقًا فقمت بإبلاغه عن الحديث الذي دار بيني وبين مدير الشركة وكيف أني قد انفجرت في وجهه فور إبلاغي بالخبر. صمت قليلاً ثم قال:

لا تكرهوا شيئًا لعله خيرٌ لكم. أدهشتني تلك العبارة، لا لأنني أسمعها لأول مرة ولكن لأني لم أكن اتوقع أن تُصدر من سالم؛ فأنا لم أسمعه يتكلم كما كان يتكلم معي الآن فكلامه منمَّق وفيه قدر من الحكمة والهدوء وهو غالبًا ما كان ينحى بأي حديث مهما كانت جديته منحى السخرية. ياه كم تغير! ولكن لماذا؟ هل يقوم بذلك لأنه يحاول أن يخفف من مدى إحباطي أم أن شيئًا ما حدث في حياته.

- سالم هل أنت على ما يرام؟

استغرب سؤالي قائلاً:

- لماذا تسألني هذا السؤال فأنت تراني أمامك وتعلم أنني على ما يرام على كل حال شكرًا لك على سؤالك.

رمقته بنظرة تهديد فهِمَ من خلالها أنني ألومه على شكره لي وهو من كان قبل قليل قد انفجر غاضبًا لأني شكرته على قدومه فأطلق ضحكة مدوية شاركته من ناحيتي بها وقال لي ممازحًا:

- لا بد أني التقطت العدوى منك. توقفت بنا السيارة قرب منزلي فدعوته لمرافقتي إلى المنزل لكنه اعتذر حيث أن لديه موعد مهم.

بدأت بصعود الدَّرج نحو منزلي وأنا افكر في اعتذار سالم: موعد مهم، من! سالم لديه موعد مهم!، ومنذ متى يهتم بالمواعيد سواء أكانت ذات أهمية أم لا! لا بد أن شيئًا ما يحدث معه ويجب عليَّ أن أعرف ما الذي غيره بهذا الشكل. أسعدني التغيير الذي بدأتُ ألاحظه في شخصية سالم ولكنه أيضًا أقلقني فلا بُد أن ما دفعه لهذا التغير أمر جدي. أرجو الله أن يكون كل شيء بخير.

دخلت إلى المنزل فإذا بذلك الطفل الذي رأيته في المقهى يجلس على مقعدي مسندًا ظهره إلى ظهر المقعد وواضعًا قدمًا فوق الأخرى وكأنه يجلس في منزله. يا إلهي! هل عدت للتوهم من جديد! وقبل أن استطيع أن أفعل أي شيء سمعت الطفل يقول تفضل واجلس بقربي. اقتربت

منه والدهشة تعتلي وجهي فابتسم ذات الابتسامة التي ابتسمها لحظة لقائنا الأول في المقهى وقال لي: دعني أطمئنك أنك بكامل قواك العقلية وأنني فعلاً موجود أمامك وأنك لم تُصب بالجنون بعد..

- من أنت إذاً وكيف دخلت إلى منزلي وماذا تريد مني؟

- أما بالنسبة لسؤالك الأول فلن أجيبك عليه لأنك تعرفني جيدًا.

- أنا أعرفك! من أين؟ فأنا لم ألتقِ بكِ من قبل ذلك اليوم المشؤوم في المقهى.

- كما قلت لك أنت تعرفني جيدًا منذ عشرات السنين وأكاد أجزم أنك تعرفني أكثر مما تعرف نفسك ...

ودون أن يمنحني الفرصة للتفوه بأي شيء واصل كلامه:

- أما بخصوص كيف دخلت إلى منزلك فأنا استغرب هذا السؤال فأنا أقيم هنا منذ أن انتقلت أنت للسكن هنا.

- أنت تقيم هنا! أين؟

- ماذا تقصد أين؟ هنا في المنزل وأجلس على هذا المقعد وأنام على السرير الذي في زاوية الغرفة هناك.

- لكن هذا مقعدي وذاك سريري فكيف لك أن تجلس على مقعدي أو تنام في سريري وأنا استعملهما كل يوم ولم أركَ يومًا من قبل؟

- إن كنت لا تراني فهذا لا يعني أنني غير موجود. اما بالنسبة لسؤالك الثالث فأنا لا أريد منك شيء في الحقيقة أنت من تريد مني.

- أنا اريد منك شيئًا! لا بد من أنك تمزح فأنا لم ألتقيك من قبل، فكيف تقول لي أنني أريد منك شيئًا؟

- يا لك من شخص غبي، لقد قلت لك بأنك تعرفني جيدًا وأنني أقيم معك ههنا منذ زمن لقد بدأت تثير أعصابي بغبائك ونهض من مقعده وانتزع نظارتي عن وجهي وألقى بها نحو الأرض.

- يا أخي مالك ومال نظارتي كل ما التقيك في مكان تقوم بنزعها وإلقائها على الأرض؟

انحنيت لالتقاطها ومرة أخرى عندما عدت إلى مكاني كان ذلك اللعين قد اختفى عن الأنظار. أشعلت سيجارة وجلست والحيرة تملأ نفسي هل فعلاً أنا أعرفه كما قال لي؟ هل فعلاً التقينا من قبل؟ ولكن أين؟ ثم كيف يقول لي بأني أعرفه منذ عشرات السنيين وهو لم يتجاوز من العمر بضع سنوات بعد. وفوق ذلك يريد أن يقنعني بأنه أيضا يحيى معي في منزلي ويستخدم مقعدي وسريري معي وأنا لم ألاحظ ذلك! يا له من

مخادع لا بد أن وراءه قصة مريبة وإلا كيف استطاع أن يدخل إلى منزلي اليوم. لا بد أن هناك شخص ما يحاول أن يعبث معي وهو من يدفع بهذا الطفل إلى حياتي.

مهلاً مهلاً أين تذهب بأفكارك لقد بدأت تتحدث عنه وكأنه فعلاً موجود وها أنت قد بدأت تسلم بأنه حقيقة. هذه مجرد أوهام وأنت تتخيل الأمر برمته. لا بد أنَّ الضغط الذي سببته أحداث الأيام الماضية قد بدأ ينال من قدرتك على التركيز وبدأت تتخيل أمورًا غير واقعية. لا بد لي من إيجاد طريقة للتخلص من هذه الأوهام وإلا فإنني سأصاب بالجنون.

نظرت حولي فإذا بالمكان في غاية الفوضى وكأن قنبلة قد انفجرت في الداخل مبعثرة كل شيء من مكانه، الملابس المتسخة منتشرة في كل مكان، فناجين القهوة وأكواب الشاي مبعثرة هنا وهناك، الطاولة مليئة بالأطباق وبقايا الطعام قد جفت بداخلها، الجرائد القديمة ملقاة في أكثر من موقع على الأرض، سلة القمامة في المطبخ تفيض بالقاذورات، منافض السجائر الممتلئة بأعقاب السجائر موزعة بين غرفة النوم وغرفة الجلوس، أبواب خزانة المطبخ تشرع أبوابها في كل اتجاه، أكياس البقالة الفارغة تغطي سطح المنزل، أزواج الأحذية تهيم على أرضية الغرفة، فوضى عارمة في كل مكان.

أمضيت عدة ساعات وأنا أحاول إعادة النظام إلى المنزل لم أتوقف خلالها إلا لإشعال سيجارة بين الحين والآخر قبل أن أعود للانهماك في العمل من جديد. حمدت الله على أن والدتي لاتقيم معي في نفس المكان فلو رأت هذا المنظر لأصيبت بالجنون. يا إلهي لقد مضت عدة أسابيع لم أقم بها بالاتصال بوالدتي للاطمئنان على أحوالها لا بد أنها في غاية القلق علي الأن كيف غاب عن ذهني أن أتصل بها. تناولت هاتفي وقمت بالاتصال بوالدتي التي قامت بإجابة الاتصال فورًا. خالد ماما أين أنتَ لقد أقلقتني عليك، أين كنتَ؟ هل أنتَ بخير؟ هل أصابك مكروه؟ لماذا هاتفك مغلق منذ عدة ايام؟ لماذا لم تتصل بي منذ أسابيع؟ وأتبعتها بسيل من الأسئلة المغلفة باللهفة والقلق دون أن تمنحني الفرصة لأجيب أي من اسئلتها. حاولت تهدئتها مطمئنا إياها على أحوالي ولكنها لم تتوقف عن الكلام، خالد، ماما، أرجوك لا تخفي عني شيء، هل أنت بخير؟ هل أصابك مكروه؟ استحلفك بالله وبروح والدك أن تخبرني ماذا حدث لك؟ والله قلبي يغلي من شدة القلق عليك؟ وأعادت نفس الأسئلة من جديد مرارًا وتكرارًا دون توقف.

- أنا بخير، لا تقلقي فقط الأحوال الجوية كانت سيئة وكانت خطوط الاتصال معطلة منذ عدة أيام أقسم لكِ بأن كل شيء على ما يرام... هدأت قليلاً بعد أن اطمأنت أني بخير أو هكذا أرادت أن تجعلني أعتقد، انفجرت بالبكاء وبدأت بتوبيخي:

- يا لك من ولدٍ عاقٍ! كيف أمكنك أن تتركني فريسة لقلقي وهواجسي، إياك أن تفعل بي ذلك مرة أخرى، لقد كنت أريد أن استقل الطائرة كي آتي للاطمئنان عليك، فعلاً أنك واحد ما بتستحي. حمدًا لله على سلامتك. الحمد لله أنك بخير. أقلقتني عليك كثيرًا.

لقد كانت مكالمة عاصفة مليئة بالقلق والمشاعر الجياشة ومختلف أنواع الأسئلة المكررة وطبعًا الشتائم المحببة إلى قلبي. أغلقت الهاتف وعاهدت نفسي أن لا أغفل الاتصال بوالدتي مرة أخرى فأنا لا أرغب أن أدعها تقلق عليَّ بهذا الشكل مرة أخرى. أرجو الله أن تكون قد اقتنعَت بحججي الواهية وأن قلقها عليَّ قد زال وأنها قد عدلت عن فكرة استقلال الطائرة والقدوم إلى الأردن فأنا لا أريدها أن تأتي الآن -على الرغم من اشتياقي لها- فأموري ليست على ما يرام ولا أريدها أن تكتشف بأني على وشك أن أخسر عملي وأصبح بدون مصدر للرزق. بعد أن أنهيت مكالمتي العاصفة مع والدتي كنت منهكًا تمامًا من ترتيب المنزل الذي عاد النظام إليه فتوجهت للنوم وغُطت في سبات عميق لم يقطعه إلا صوت جرس المنبه في صباح اليوم التالي.

توجهت إلى عملي كالمعتاد في الصباح وتوجهت إلى طاولتي بعد إلقاء التحية على زملائي. أردت الجلوس في مقعدي لكن ذلك الطفل كان يجلس في مكاني، وقفت متسمرًا في مكاني كعمود من الحجر غير مصدق

عيني. سمعت صوت أحدهم يخاطبني قائلا: ما بالك! لماذا لا تجلس أم ستمضي اليوم واقفًا مثل الشمعة بلا ضى. عُدت إلى رُشدي وحاولت الجلوس في مقعدي إلا أن صوت الطفل منعني من ذلك:

- ماذا بك هل ستقوم بالجلوس فوقي كي تسحقني تحت وزنك الثقيل!

- نعم سأفعل فأنا لا أهتم بأمرك فهذا مقعدي وأنت من تطفلت عليه..

قمت بالجلوس في مكاني غير أبه به ولحمد الله لم أسمع صوته يصرخ وأنا أسحقه تحت وطأة وزني. لا بد أنه أدرك أنني جاد في ما أقول ونهض من مقعدي قبل أن اسحقه. بقيت لعدة دقائق غير قادر على القيام بأي شيء سوى التحديق في كل ما حولي باحثًا عن ذلك الطفل الذي بدأ يصيبني بالجنون. بعد أن تطمأنت لعدم وجوده قمت بإدارة جهاز الحاسوب وبدأت بالعمل ولكن دون قدرة على التركيز فمنظر الطفل وهو يجلس في مقعدي قد استحوذ على كل حواسي. مرَّ ذلك اليوم في العمل بطيئًا وكلما انجزت بعض المهام عدت للتفكير في ذلك الطفل الذي أقتحم حياتي دون استئذان. امضيتُ جُلَّ الوقت في ذلك اليوم وأنا أحاول جاهدًا أن أتذكر، هل رأيت هذا الطفل من قبل، فلقد بدا لي أنَّ وجهه مألوفًا لدي ولا بد أني التقيته في مكان ما. أوقفت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يتوجه بي نحو منطقة الشميساني فأنا لا أرغب بالعودة إلى المنزل واعتقدت إنه من الأفضل لي أن لا ابقى وحيدًا

في منزلي كي لا تهجم عليَّ الأوهام.كانت الطُّرق مزدحمة جدًا في ذلك المساء واستغرقتنا الرحلة قرابة الساعة على الرغم من أننا عادة ما انقطعُ المسافة بأقل من نصف ساعة بقليل. وجدت نفسي أسيرًا في داخل السيارة ولم أجد مفرًا من التحدث مع السائق أملاً في أن يمر الوقت أسرع. نظرت نحو السائق وقد كان على حسب تقديري في أواخر العقد الرابع أو بداية العقد الخامس من العمر، فقد معظم شعر رأسه وعلى ما يبدو أنه لم يقم بحلاقة ذقنه لعدة أيام وقد ارتدى معطفًا بدا عليه القدم وقد كان متجهمًا معظم الرحلة:

- كيف الأحوال يا عم؟

- الأحوال كل شيء تمام، الحمدلله، لا ينقصنا شيء، الدخل ممتاز، وأسعار البنزين رخيصة، وبإمكان أي فرد من أفراد المجتمع السكن في منزل ملائم وأن يتلقى العناية الصحية المجانية في أفضل المستشفيات العامة والخاصة، وأسعار الكهرباء والماء في انخفاض مستمر، ولا يوجد ضرائب تثقل كاهلنا، سامحك الله يا أخي يعني ضروري تسأل عن الأحوال، لا بد أنك تعلم أكثر مني أن الأوضاع سيئة ولا يوجد أحد يهتم بأمر هذا الشعب المسكين، خليها على الله على كل حال الشكر والحمد لله.

حاولت أن أخفف من حدَّة انفعاله قائلاً شدَّة وبتزول إن شاء الله لكن محاولتي لم تفلح إذا أنه عاد للحديث عن أوضاعه: والله يا أخي إنني أعمل من الساعة السادسة صباحًا إلى الساعة العاشرة ليلاً كل يوم، ولا أرى أولادي الأربعة إلا في المناسبات ورغم ذلك بالكاد استطيع سد احتياجاتهم المتزايدة وفوق ذلك كله سيقومون برفع أسعار البنزين والكهرباء كي يزيدوا في شقائنا. توقف عن الحديث للحظات ثم نظر نحوي: هل أنت متزوج؟

- لا ليس بعد يا عم.

- والله أحسنلك، اوعى تتزوج خليك هيك احسنلك.

لم أعلم، بماذا أرد عليه؟ فاكتفيت بالابتسام له. أردت أن أقول له بأنني بالكاد استطيع سد احتياجاتي وأنا بمفردي فكيف لي أن أسُدِ احتياجات عائلة إذا ما تزوجت، لقد أصبح الزواج حلمًا بعيد المنال لمعظم الشباب في هذه الأيام ولكني امتنعت عن ذلك خوفًا من أن أزيد من إحباطه فقد بدى لي بأنه قد عانى وما زال يعاني ما يكفيه من مصاعب الحياة. وصلت إلى المكان المنشود وهو عبارة عن مقهى قديم في أحد شوارع الشميساني الممتلئة بالمقاهي ومطاعم الوجبات السريعة المحلية والعالمية وهمَمت بالنزول من السيارة. وبمجرد أن وضعت قدمي على الأرض رأيت الباب الخلفي للسيارة يفتح وقفز ذلك الطفل المزعج

من المقعد الخلفي وراح يهرول إلى المقهى الذي كنت أتوجه إليه. يا إلهي! إنه يتبعني إلى أي مكانٍ أذهب إليه، لا وبل يعلم إلى أين أنوى الذهاب. حسنًا لا بُد لي من أن أقوم بالإمساك به داخل المقهى ولن أتركه إلا أن يعترف لي بكل شيء، لن أتركه قبل أن أعرف من هو؟ ومن أين جاء؟ ولما يلاحقني؟. دخلتُ المقهى فإذا به يجلس إلى الطاولة التي عادةً ما أجلس عليها عندما آتي إلى هذا المكان. اردت أن أذهب للجلوس إلى طاولة أخرى إلا أنه أشار إليَّ بإصبعه كي أشاركه الجلوسَ إلى نفس الطاولة ودون أن أشعر لبيت طلبه لا أعلم لماذا.

- ألا ترغب في الجلوس معي؟ لقد اعتقدت أنك تريد أن تمسك بي ولا تتركني قبل أن تحصل على كل المعلومات التي تريدها مني هل قمت بتغير رأيك؟.

يا إلهي! إنه يستطيع قراءة أفكاري لقد تجاوز هذا الأمر كل الحدود ولم يعد بإمكاني أن أتحمله أكثر من ذلك ولا بُد لي من أن أنهي هذا الأمر الآن وإلى الأبد. نظرت نحوه والغضب بادٍ على وجهي فبادرني بالقول:

- هل هناك ما يزعجك؟

- هل هناك ما يزعجني، طبعًا، أنت.

- أنا! ولماذا؟

- أتسألني لماذا! ألا تعلم لماذا؟ لأنك اقتحمت حياتي دون استئذان، وتلاحقني أنى ذهبت وإلى الأن ترفض أن تجيبني من أنت وماذا تريد مني وأنا لم أعد قادرًا على أن أتحملك أكثر من ذلك.

- هل تريدني أن أذهب إذا؟

- نعم ولكن ليس قبل أن تخبرني من أنت.

- لقد قلت لك بأنك تعرفني جيدًا فتوقف عن طرح هذا السؤال الغبي فمهما حاولت الإنكار فإن ذلك لن يغير من الواقع فلا يوجد أحد في هذا العالم يعرفني أكثر منك.

- أقسم بالله أني لا أعرفك ولا أعرف من اين جئت، أرجوك أن تخبرني منْ أنت؟.

حضر نادل المقهى في ذلك الوقت لأخذ طلبي وعندما انتهيت من الحديث معه كان الطفل قد اختفى عن الأبصار. ذلك اللعين يقتحم حياتي فجأة ويختفي فجأة. أمضيت بعض من الوقت في المقهى أسحب أنفاس النرجيلة وأراقب تحركات الناس من حولي فالمكان كان يعج بمختلف أنواع البشر الذين لجأوا إلى هذا المكان بهدف قتل الملل أو الهروب منْ واقع صعب. صوت أحجار النَّرد كانت ترتفع في المكان فالعديد من رواد المقهى يمضون الوقت في لعب طاولة النَّرد، صوت

التلفاز الذي يبث مباراة من الدوري الانجليزي لكرة القدم كان يطغي على أي صوت آخر في المكان ناهيك عن صرخات المشجعين في المقهى التي كانت ترتفع فجأة مع محاولة أحد اللاعبين لتسجيل الهدف، بائع الاسطوانات المدمجة المقلدة الذي لا ينفك يهرول نحوي كلما قمت بارتياد المقهى محاولاً إقناعي بشراء بعض الاسطوانات وأنا لا أنفك عن إخباره أنني لا أملك جهاز عرض الاسطوانات المدمجة لكنه لا يفقد الأمل من المحاولة مجددًا،عامل المقهى الذي يحمل منقل الفحم ويلوح به في الهواء للإبقاء على الفحم مشتعلاً غير آبه بإمكانية إفلات الفحم المشتعل من المنقل وإحراق أحدهم أو حتى أن يُتلف الشرر المتطاير ثياب أحدهم، عشرات الموظفين الذين يهرولون في كل اتجاه لأخذ طلبات الزبائن أو تقديم المشروبات، لقد بدى المكان أشبه ما يكون بخلية نحل من شدة الازدحام.

يبدو الناس هنا بأنهم سعداء وفي غاية الارتياح ولكن بمجرد خروجي من المقهى تبدل الواقع تماما، وجوهٌ عابسة، أصوات أبواق السيارات تملأ الشوارع، الشتائم التي تقتحم إذن الإنسان والتي يطلقها أحد المشاة موجهاً إياها نحو إحدى السيارات التي كادت أن تدهسه وهو يحاول عبور الشارع إلى الناحية الأخرى، مجموعة من المراهقين الذين لا يفوتون فرصة مرور فتاة في الشارع دون أن يطلقوا بعض التعليقات الجارحة أو التعليقات البذيئة، المتسولون الذين يتشبثون بثياب المارة

ولا يسمحون لهم بإكمال طريقهم دون الحصول على بعض المال منهم، أصوات الباعة المتجولين الذين يقومون ببيع الذرة المسلوقة أو المشوية أو الفول السوداني المحمص. عالم مغاير تمامًا للعالم في داخل المقهى. وصلت إلى منزلي بعد أن افلتُّ عدَّة مرات من الموت بسبب سائق سيارة الأجرة المتهور الذي كاد يتسبب بقتلنا عدةمرات بسبب السرعة الجنونية أو التجاوز الخاطئ وفور دخولي للمنزل بادرني ذلك الطفل الذي كان يجلس في مقعدي بالقول:

- أهلاً وسهلاً، لماذا تأخرت؟

- ماذا تفعل هنا؟

- لا شيء لقد أصبتني بالملل بأسئلتك الغبية في المقهى فقررت أن أسبقك إلى المنزل لنيل قسط من الراحة.

انقضضت عليه محاولاً الإمساك به والقيام بخنقه للتخلص منه ولكني سقطت على الأرض قبل أن أتمكن من إنجاز المهمة. أرجو أن لا تكون قد أصبت بأذى قالها الطفل مستهزئا بي.

- يا ابن الكلب والله لأقوم بنزع لسانك قبل أن اشبعك ضربًا. حاولت الانقضاض عليه مجددًا لكنه قفز من المقعد فجأة فسقطت على المقعد وارتطم رأسي بالمسند الخشبي. ألم شديد افقدني توازني

لبعض الوقت وذلك اللعين يقف فرحًا بالقرب من الطاولة ويقوم بتحريك رأسه يمينًا ويسارًا متشمتًا بي:

ما بالك، لا تفتأ أن تقف على قدميك حتى تعود للسقوط مجددًا لا بد أن السبب هو هذه النظارة اللعينة وقام بالانقضاض عليها ملقيًا بها على الأرض ثم توارى عن الأنظار. أصبت بثورة من الغضب ورحت أبحث عنه كالمجنون في كل أرجاء المنزل مطلقًا مختلف أنواع التهديدات إلى أن سقطت منهكًا على سريري.

مرَّت عدة أيام والطفل يلاحقني كظلي إلى كل مكان، في المنزل، في سيارة الأجرة، في المقهى، في الشارع، في العمل حتى افقدني قدرتي على التركيز والنوم وأصابني بالجنون. لا يمكنني السكوت على هذا الوضع أكثر من ذلك. قمت بتشغيل جهاز الحاسوب وقمت بالدخول إلى الشبكة العنكبوتية وإلى محرك جوجل للبحث وأدخلت عبارة "تخيُّل أشخاص وهمين" وما إن ضغطتُ على كلمة بحث حتى ظهرت أمامي مئات الصفحات التي تناقش الموضوع. أمضيت الليل بأكمله وأنا أقرأ تلك الصفحات وجميعها كانت تؤكد لي بأنني مصاب بمرض الشيزوفرينيا أو انفصام الشخصية فجميع الأعراض تنطبق تمامًا على حالتي:

عدم القدرة على التركيز، عدم القدرة على النوم، الأوهام كسماع أصوات أو رؤية اشخاص غير موجودين في الواقع، وغيرها من الأعراض

التي أُعاني منها. أصبت بالهلع. الهلع، هذا أيضًا عرض آخر من الأعراض التي قرأت عنها. هل هناك من علاج؟ واصلت بحثي على الشبكة العنكبوتية وصعقت وأنا أقرأ "إن مرض الشيزفرينيا لا يمكن العلاج منه ولكن هناك بعض الأدوية التي تخفف من أعراضه"

يا إلهي! هل سيبقى هذا الطفل ينغص عليَّ حياتي إلى الأبد؟ لا بد لي من استشارة اختصاصي فى الطب النفسي. عدت من جديد للبحث على الشبكة وأدخلت عبارة "الأطباء النفسيين في مدينة عمان" قادني البحث إلى صفحة أسماء العيادات النفسية وعناوينها. هناك عيادة في جبل عمان، هذه مناسبة فهي قريبة من منزلي. لا لا، هناك العديد من الأشخاص الذين يعرفوني في هذه المنطقة ماذا لو رآني أحدهم أدخل الى العيادة لا بد أنه سيخبر الجميع بأنه رآني أقوم بزيارة عيادة المجانين. لا زال الناس هنا ينظرون إلى كل من يقوم بمراجعة عيادة الطب النفسي على أنه مجنون ولا زالوا يطلقون على عيادة الطب النفسي اسم عيادة المجانين. لا بد لي من إيجاد عيادة أخرى. واصلت بحثي فوجدت أن هناك عيادة في منطقة العبدلي. آه، هذه مناسبة والمسافة معقولة وقريبة من مكان عملي.

يا إلهي! ماذا لو رآني أحد زملائي في العمل أو ربما يراني مالك اللعين؟ لا بد أنه سينشر الخبر على صفحات الجرائد خاصة بعد أن قلت له أنه

طرطور في الشركة وعاملته بمنتهى عدم الاحترام عندما جاء يسألني عن سبب غيابي. العديد من الخيارات ولكنها جميعا غير مناسبة فكلما اخترت إحداها اكتشفت أن هناك شخص أو أكثر في المنطقة يمكن أن يتعرف عليَّ. واصلت بحثي وأخيرًا وقع اختياري على عيادة في منطقة شرق عمان. ولكن هذه العيادة بعيدة عن مكان سكني كيف سيمكنني الوصول إليها؟

لا يهم سأتدبر أمري. عقدت العزم على الذهاب غلى تلك العيادة وقمت بتسجيل رقم هاتف العيادة في هاتفي النقال كي أقوم بالاتصال في الصباح لأخذ موعد. كانت الساعة قد قاربت على الخامسة صباحًا ولم يعد لدي وقت للنوم حيث أنه لا بُد لي من مغادرة المنزل على الساعة السابعة للالتحاق بالعمل. مرت الدقائق بطيئة وكان النعاس يغالبني. فعلًا كل شيء في حياتي يسير عكس التيار فعندما أحاول النوم لا أجد إليه سبيلًا والآن النعاس يغالبني ولا أقوى على البقاء مستيقظًا لساعة أخرى. قمت بإعداد بعض القهوة أملاً بأن تساعدني على البقاء مستيقظًا إلى أن يحين موعد الذهاب للعمل. غادرت منزلي متوجهًا إلى عملي وانا أعاني من الإرهاق والنُّعاس وبمجرد دخولي مبنى الشركة أخبرني زملائي بأن المنافق مالك يرغب بمقابلتي...

ماذا يريد ذلك الطرطور الأن؟ هل سيخبرني بأن مجلس الإدارة قرر أنه غير قادر على دفع راتبي لمدة ثلاثة أشهر خوفا من أن تنهار الشركة ولذلك عليَّ مغادرة الشركة في الحال؟ توجهت إلى مكتب عديم الشخصية مالك الذي كان في ذلك الوقت يتحدث مع أحدهم على الهاتف وكل ما كان يتفوه به هو كلمة حاضر سيدي وأمر سيادتك. يا لك من طرطور رددتها في ذهني عدة مرات. بمجرد أن أنهى مكالمته بادرته بالقول:

- خير، ماذا تريد مني؟ لقد أبلغوني بأنك ترغب في مقابلتي؟

- خير إن شاء الله أخي خالد. لقد لاحظت في الفترة الماضية بأنك غالبًا ما تأتي متأخرًا إلى العمل، أنا أعلم أنك ستغادرنا قريبًا لكن رجائي الخاص الالتزام بموعد العمل حيث أن زملائك في العمل ابتدأوا بالشكوى من تأخرك المستمر.

كل ما قلته له: إن شاء الله ،ثم غادرت مكتبه. يا لك من جبان حتى أبسط الأمور تحاول الإلقاء بها على الآخرين ألم يكن بإمكانك أن تقول لي بأنك تريدني أن ألتزم بمواعيد العمل دون أن تبرر ذلك بقولك أن زملائي ابتدأوا بالشكوى فعلاً أنك طرطور وتوجهت إلى طاولتي وأنا أردد بعلو صوتي طرطور والله طرطور وكررتها مرارًا وتكرارًا فانفجر زملائي بالعمل بالضحك. يالكم من منافقين الآن تضحكون وبعد قليل

ستتسللون إلى مكتبه لإخباره بذلك. ما بالي بدأت أشك في جميع الناس حتى زملائي.

يا إلهي! هذا عرض آخر من أعراض مرض التشيزفرينيا فلقد قرأت في الأمس أن المصاب بهذا المرض يصاب بالوسواس ويبدأ بالتوهم بأن جميع الناس يتآمرون عليه. لا بد لي من الاتصال بالعيادة وعدم إضاعة الوقت فالأمور تزداد سوءً. خرجتُ إلى خارج مبنى الشركة وقمت بالاتصال بالعيادة وحصلت على موعد على الساعة السادسة والنصف مساءً. عدت إلى طاولتي وفور مباشرتي للعمل رأيت ذلك الطفل من جديد يجلس على الطاولة بجانب شاشة جهاز الحاسوب وهو ينظر إلي نظرة قرأت فيها الغضب والعتب في آنٍ واحد.

- نعم ماذا تريد الآن؟

- لا أريد شيئًا لقد قلت لك عشرات المرات أني لا أريد منك شيئًا ولكن إياك أن تذهب إلى عيادة المجانين فأنت لست بمجنون لقد أكدت لك مسبقًا وها أنا أكررها: أنت لا تتوهم وجودي وأنا فعلاً موجود، إن عقلك سليم مئة بالمئة ولا تعاني من أي شيء.

- أُغرب عن وجهي كفاني ما فعلته بي إلى الآن، أنت مجرد وهم ولا بُد لي من التخلص منك وسواء شئت أم أبيت فأنا سأذهب إلى العيادة بعد

انتهاء العمل وسأقوم بانتزاعك من حياتي وقمت بتوجيه لكمة إلى وجهه لكنه أمال رأسه إلى اليمين فمرت يدي على بعد سنتميترات من وجهه.

- خالد ما بك؟

قالها زميلي مستغربًا حركة يدي.

- لا شيء فقط هناك ذبابة كانت تزعجني وكنت أحاول ابعادها عني.

- أنا ذبابة! فعلاً أنك غبي فأنا أحاول أن أساعدك منذ أيام وأنت تصفني بالذبابة، يا لك من ناكر للجميل! حسنًا سأذهب الآن لكني أحذرك من الذهاب إلى العيادة إياك أن تفعل هل تسمعني إياك أن تذهب.

اختفى من أمامي دون أن أعلم كيف أو إلى أين ذهب؟ كنت في غاية الغضب وكان جسدي بأكمله يرتجف والعرق يتصبب من

جسدي على الرغم من برودة الجو.

- خالد، ما بك لماذا ترتجف هكذا هل أنت بخير؟

- لا أعلم ماذا أصابني فأنا أشعر بحرارة عالية تسري في جسدي ولا استطيع التنفس.

- هل ترغب بالذهاب لرؤية طبيب فأنت تبدو شاحبًا والعرق يتصبب من وجهك؟

- لا سأكون بخير فقط أريد أن أخرج للخارج لاستنشاق بعض الهواء النقي وسأكون بخير.

ساعدني زملائي على الخروج إلى الخارج وأنا بالكاد قادر على تحريك قدمي وأجلسوني على كرسي استعاروه من المتجر المجاور. بقيت بعض الوقت غير قادر على الحراك وكان زملائي يقفون بقربي في غاية القلق. بدأت استعيد أنفاسي شيئاً فشيئ وبدأ الشعور بالحرارة يزول من جسدي وتوقف جسدي عن الارتجاف.

- هل أنت بخير؟

- نعم أنا على ما يرام دعونا نعود إلى الداخل.

- هل أنت متأكد انك لا تحتاج إلى استشارة الطبيب؟

- لا داعي لذلك فأنا بخير فقط كنت بحاجة الى استنشاق بعض الهواء وأنا الآن بخير.

عـدنا إلى العمـل لكـن آعـين زملائي لـم تتوقـف عـن مراقبتي عـن بُعـد للاطمئنان عليَّ خوفًا من أن تعاودني صعوبة التنفس. بعد انتهاء العمل عـرض عليَّ أحـد زملائي أن يقـوم بمرافقتي إلى المنزل لكني رفضت ذلك مؤكدًا له أنني بخير ولا داعي لأن يقوم بتكليف نفسه مشقة مرافقتي. في واقـع الأمـر قـد كنت لا أزال أشـعر بالتعب وفقـدان القـدرة على الحركة بسـهولة لكني كنـت مصـممًا على زيـارة العيـادة. أوقفـت سـيارة أجـرة وطلبـت مـن السـائق التوجـه بي إلى العنـوان الـذي زودتـنى بـه موظفـة العيـادة. رأيت لوحـة العيـادة من شـباك السـيارة "عيـادة الـدكتور سـمير الأحمـد، اختصاصي الطب النفسي، و عضـو جمعيـة استشـاري الطب النفسي الأمريكية".

لكني تركت سـائق السـيارة يسـتمر في السـير إلى أن ابتعـدنا بضعـة مئات من الأمتار عن العيادة فأنا لم أرغب بأن أقوم بالنزول من السيارة أمام مـدخل العمـارة التي توجـد بهـا العيـادة خوفًـا مـن أن يكتشـف سـائق السيارة وجهي. ما بالي أخشى أن يعلم سائق السيارة من أني متوجه إلى عيادة للطب النفسي فهو لا يعرفني!

لا هكذا افضل فأنا لا أريد أن يعلم أحد أنني بدأت أصاب بالجنون حتى وإن كان شخص غريب لا يعرفني.

- توقف هنا إذا سمحت.

- هنا؟

- نعم هنا رجاءً.

- تفضل، هل ترغب أن انتظرك حتى تنتهي كي أعود بك إلى المنزل؟

- لا شكرًا فأنا أقوم بزيارة بعض الأقرباء ولا بد من أنني سأبقى لبعض الوقت.

وقمت بالنزول من السيارة بعد أن دفعت للسائق الأجرة المحددة.

- يا لك من كذاب، تقوم بزيارة بعض الأقارب، لماذا لم تخبره بأنك متوجه إلى عيادة المجانين إذا كنت تخجل من ذلك، فلماذا تقوم

به؟ للمرة الأخيرة أحذرك، إياك أن تدخل العيادة.

لم أكترث بما قاله الطفل فلقد اتخذت قراري ولا شيء يمكنه أن يثنيني عن ذلك الآن. نظرت حولي في كل الاتجاهات للتأكد من عدم تواجد أي شخص في الطريق إلى العيادة ولحسن الحظ كان الطريق خاليًا تمامًا. فالبرد كان قارصًا ولا أحد يجرؤ على الخروج إلى الشارع العام إلا مضطرًا. كانت العيادة تقع في زقاق سكني ضيق بيوته قديمة وجدران منازله كانت قد تشققت من الخارج، إمَّا بسبب القِدَم أو بفعل الأمطار الشديدة في الأيام الماضية. وعلى ما يبدو فإن أجهزة الأمانة لم

تقم بإزالة مخلفات العاصفة من هذا المكان بعد. فالأوحال لا زالت تملأ المكان وأوراق الشجر وبعض الأغصان المتكسرة ملقاة في كل مكان، الشارع الضيق معتم تماما، فإلى الآن لم يتم استبدال إنارة الشارع التي أعطبتها الرياح. سرت باتجاه العيادة متلفتا يمينا ويسارا كلصٍ يتوجه لسرقة أحد المنازل ويخشى أن يراه أحد. وصلت إلى مدخل البناية وقمت بتفقد المكان لأتأكد من عدم وجود أي شخص هناك. نظرت إلى الداخل مستكشفَا الدَّرج، فسمعت وقع أقدام أحدهم يهبط الدرج فسارعت للاختباء خلف حاوية قمامة على جانب الطريق إلى أن غادر المكان. لقد كان رجلاً مسنًا لا بد أنه كان في العيادة. عندما تطمئنت إلى خلو المكان قمت بصعود الدرج على عَجَلٍ قبل أن يظهر أحدهم.

وقفت أمام باب العيادة الخشبي الذي تعرى بشكل شبه كامل من الطلاء البني اللون الذي كان يستر عورته في يوم من الأيام. قمت بأخذ نفس عميق لاستجمع قواي وقمت بفتح الباب مترددًا. غرفة صغيرة لم تتجاوز مساحتها ثلاثة أمتار مربعة، الجدران مطلية باللون الأزرق الفاتح، عامود إنارة في زاوية الغرفة يبث الدفء في المكان عبر ضوئه الخافت، ثلاثة مقاعد جلدية بنية اللون على ما يبدو أنه قد تم شراؤها حديثًا، طاولة صغيرة تجلس إليها سيدة في العقد الخامس من العمر لكنها في غاية البشاشة:

- أهلا وسهلاً، تفضل.

- مساء الخير، اسمي خالد ولدي موعد لرؤية الطبيب.

- نعم تفضل بالجلوس ريثما أخبر الطبيب بقدومك.

أشارت بيدها باتجاه المقاعد الجلدية الثلاثة. جلست على إحدى المقاعد وجلس الطفل في المقعد المجاور وما إن غـادرت السيدة

متوجهة إلى غرفة الطبيب حتى بادرني بالقول:

- إذًا، أنت مصمم على رأيك حسنًا إذًا فلتفعل ما يحلو لك، لكني أؤكد لك بأنك لست بحاجة لأن تقوم بذلك فأنت سليم تماما لكن بما أنك قد قررت أن تخوض في هذه التجربة فعليك تحمل العواقب.

خرجت السيدة من غرفة الطبيب والابتسامة لا تفارق وجهها:

- تفضل فالطبيب بانتظارك.

نهضت من مقعدي وتوجهت إلى غرفة الطبيب غير مكترث بما قاله لي الطفل. غرفة واسعة مطلية بذات اللون الأزرق، إضاءة خافتة تنبعث من زوايا الغرفة، موسيقى هادئة تملأ المكان، لوحة طبيعية لجدول ماء تحيط به الأشجار الخضراء تتوسط جدار الغرفة، طاولة زجاجية صغيرة

عليها زجاجة مياه معدنية وعدد من الأكواب، إلى جانبها مقعد جلدي ذو مسندين وآخر أشبه ما يكون بالسرير، رجل مسنٌ أبيض الشعر يرتدي نظارة استقرت على منتصف أنفه تعتلي وجهه ابتسامة هادئة. لا بد أنه الطبيب. تفضل يا خالد، قالها وكأنه يعرفني منذ عدة سنوات وأشار إليَّ للجلوس في المقعد الممتد كالسرير. شعرت بالارتياح تجاه هذا الرجل المسن وأحسست بأنه يمكنني الوثوق به. بداية جيدة. أنا سمير، قالها دون أن يستبقها بكلمة طبيب أو اختصاصي الطب النفسي ثم أتبعها قائلاً:

أهلاً وسهلاً بك، ما الذي جاء بك إليَّ اليوم، آملُ أن أتمكن من مساعدتك.

- شكرًا لك دكتور.

- ارجو أن تناديني باسمي سمير فأنا أكره الألقاب.

- حسنًا أستاذ سمير.

- سمير لوحدها يا خالد رجاءً.

- حسنًا سمير، قلتها بصعوبة فأنا ألتقي به للمرة الأولى وأنا غير معتاد على مناداة الأشخاص بأسمائهم المجردة في اللقاء الأول. والله يا دكتور، عفوًا سمير لا اعلم ماذا أقول لك؟.

- قل ما شئت فأنا هنا في خدمتك وأرجوك أن لا تتردد في إخباري بأي شيء فأنا أؤكد لك ان اي شيء تقوله لي لن يخرج خارج هذه الغرفة.

- ببساطة لقد جئت لزيارتك اليوم لأنني أعتقد أني بدأت أصاب بالجنون وقبل أن أكمل حديثي ابتسم نحوي وقال لي:

لا تطلق الأحكام مسبقًا، فقط أخبرني بما يزعجك واترك لي أمر تحديد ما تعاني منه.

- حسنًا، بصراحة أنا منذ ما يقرب من أسبوعين أعاني من الأرق وقلة التركيز وأتوهم رؤية أشياء غير موجودة.

- أخبرني أكثر لو سمحت.

- منذ ما يقرب من أسبوعين بدأت أتخيل طفل صغير يرافقني الى كل مكان يظهر فجأة ويختفي فجأة يتحدث إليَّ وأتحدث إليه، حاولت جاهدًا أن أتخلص منه بشتى الطرق لكنه لا يفارقني بل على العكس كلما

حاولت التخلص منه ازداد ظهوره لي حتى أني حاولت عدة مرات أن أنقض عليه لأقتله لكنه كان يهرب مني دائمًا.

- هل كنت تراه في السابق، أعني قبل هذين الأسبوعين؟

- لم أرهُ في حياتي من قبل.

- متى بدأت برؤيته؟

- في المرة الأولى كنت في مقهى المدينة في وسط البلد وأصبت بنوع من الإعياء ثم فقدت الوعي لبضع دقائق وعندما استعدت وعي كان يجلس أمامي على الطاولة مبتسمًا اعتقدت حينها أنني لم استعد وعيي بالكامل ولكن بعد أن أغلقت عيني لبعض الوقت وعدت لأفتحها كان لا يزال في مكانه، وما زاد الأمر تعقيدًا انه وضع كفه بكفي وشعرت بدفئها.

- ماذا حصل بعد ذلك؟

- لا أذكر تماما لكني أعتقد بأننا بدأنا باللعب معًا قبل أن يختفي. لحظة، لحظة تذكرت الآن فهو قبل أن يختفي قام بنزع نظارتي عن وجهي عدة مرات وألقاها على الأرض عدة مرات وفي المرة الأخيرة قام بركلها بعيدًا عني وعندما ذهبت لالتقاطها اختفى من المكان ومنذ ذلك اليوم بدأ يظهر لي فجأة في كل مكان وغالبًا ما يكرر فعلته بانتزاع نظارتي

وإلقائها على الأرض. أرجوك أخبرني يا دكتور عفوًا يا سمير هل أنا مصاب بالشيزوفرينيا؟

نظرَ إليَّ متعجبًا:

- ما الذي يدفعك للاعتقاد بأنك مصاب بالشيزوفرينيا يا خالد؟

- لا أخفيك الأمر فأنا بالأمس قمت بالبحث على الشبكة العنقودية وقرأت العديد من المقالات التي جعلتني أعتقد أنني مصاب بهذا المرض فجميع الأعراض تنطبق على حالتي.

- ما تلك الأعراض؟

- الأرق وعدم القدرة على النوم، فقدان القدرة على التركيز، توهم رؤية هذا الطفل، الوسواس فأنا اشعر بأن زملائي في العمل منافقين ويتجسسون علي لصالح الطرطور مالك.

- من مالك؟

- مديري عديم الشخصية.

- حسناً يا خالد، صحيح مريض الشيزوفرينيا قد يعاني من بعض الأعراض التي ذكرتها لكن هناك العديد من الأسباب التي قد تؤدي إلى

obeikan.com

ظهور مثل هذه الأعراض وقبل أن نجزم بأنك تعاني من الشيزوفرينيا لا بد لنا من إجراء بعض الاختبارات ولكن من المبكر الحديث عن ذلك الآن دعنا نأخذ الأمور بترٍو خاصةً وأن مريض الشيزوفرينيا غالبًا ما ينكر أنه يعاني من أي خلل ويرفض زيارة الاختصاصين وكونك حضرت إليَّ اليوم بإرادتك على ما أعتقد وقمت بإخباري بأنك تعتقد بأنك مصاب بهذا المرض فهذا مؤشر جيد.

- هل تعاني من أي أمراض مزمنة؟

- لا أبداً، فأنا والحمد لله بصحة جيدة باستثناء أنني اصبت اليوم بحالة من ضيق التنفس وارتفاع درجة حرارة جسدي مع الارتجاف ولكن سرعان ما زالت هذه الأعراض بعد أن قمت باستنشاق بعض الهواء النقي.

- هل تكررت هذه الحالة معك في السابق؟

- لا إنها المرة الأولى.

- حسنًا هل تعرضت في الفترة الأخيرة لأي صدمات أو أحداث مؤلمة؟

- واجهت بعض الأحداث غير السارة ولكن لا أعتقد أنني استطيع وصفها بأنها صدمات كانت مفاجئات غير سارة.

- هل ترغب في الحديث عن هذه المفاجآت؟

- باستثناء إبلاغي من قِبَل مديري بأن الشركة قررت إنهاء خدماتى، فإن باقي الأحداث ليست ذات أهمية.

- هذا جيد، أخبرني عن الأمور التي تزعجك في الحياة..

واستمر بعدها بطرح العديد من الأسئلة التي لم استطع تحديد سببًا لها أو ما علاقتها مع ما أعاني منه. أخبرني عن علاقاتك الاجتماعية، هل لك أصدقاء؟ هل أنت راضٍ عن ما حققته في حياتك إلى الأن؟ كيف كانت طفولتك؟ صف لي طبيعية العلاقة ما بينك وبين باقي أفراد العائلة واستمر سيل الأسئلة واستمريت أنا بالإجابة عليها إلى أن جف فمي من كثرة الكلام. الآن فقط تمكنت من فهم سر زجاجة الماء والأكواب التي على المائدة الزجاجية. استمرت جلسة العلاج أو الدردشة كما يحلو لسمير تسميتها ما يقرب من الساعتين وفي نهايتها قال لي الطبيب بأنه لابد لنا من أن نلتقي مرة أخرى بعد أسبوع للاستمرار في الحديث وقام بتوديعي.

- عفوًا دكتور، ألن تصف لي علاج يخلصني من هذه الأوهام؟

- من المبكر تحديد ما تعاني منه ولذلك لا يمكنني أن أصف اي علاج لك في هذا الوقت، لكني سأطلب منك أن تحاول أن لا ترهق نفسك بالعمل

وأن تمارس الرياضة ثلاث مرات في الأسبوع على الأقل فالرياضة ستساعدك على التخلص من الطاقة السلبية في الجسم.

لم أفهم ما كان يقصده بالطاقة السلبية ولكني كنت متعبًا وأريد العودة إلى المنزل ولم أقم بسؤاله أن يفسر لي ما يقصده بالطاقة السلبية في الجسم ربما سأقوم بذلك عندما ألتقيه في المرة القادمة. غادرت العيادة متوجهًا إلى منزلي ووصلته منهكًا فتوجهت مباشرة الى سريري للنوم.

- أرجو أن يكون طبيب المجانين ساعدك على التخلص من أوهامك.

ذلك اللعين من جديد يجلس على حافة السرير.

- هل أكد لك شكوكك بأنك مجنون؟ هل ساعدك على التخلص مني كما كنت ترغب؟ لا بد أنه فشل في مهمته فها أنت تراني أمامك الآن. فأن تتخلص مني بعد أن دعوتني لمساعدتك مستحيل، هذا عشم إبليس بالجنة لا بد لك من أن تسلم للأمر الواقع أنا حقيقة وأنت حقيقة وأي شيء آخر هو الوهم.

- استحلفك بالله أن تتركني وشأني فأنا منهك وبحاجة للنوم.

- لن أتركك تنام، لقد حذرتك من أنه عليك تحمل العواقب إذا أصريت على زيارة تلك العيادة والأن عليك أن تتحمل نتيجة أفعالك.

لم يتركني أنعم بأي لحظة نوم في تلك الليلة، فحينًا يقوم برفع الغطاء عن جسدي معرضًا إياه لسياط البرد، وحينًا يقوم بإدارة التلفاز ويرفع الصوت إلى أقصى درجة ثم يقوم بإنارة جميع الأضواء في مختلف أرجاء المنزل، يفتح صنبور الماء في الحمام، يقوم بفتح النافذة مشرعًا إياها لجنود الريح كي تغزو غرفتي، يقوم بإشعال المدفئة وغيرها من الأفعال المجنونة التي أفقدتني صوابي إلى أن تقوقعت على نفسي في إحدى زوايا الغرفة واضعًا يدي على رأسي الذي كاد أن ينفجر من شدة الألم وانفجرت في البكاء.

- ما بالك تبكي كالأطفال؟ هل اصابك مكروه؟ هل هناك ما يسبب لك الألم؟ ربما عليك الاتصال بطبيب المجانين لتشكره على ما أوصلك إليه فأنا استطيع أن أرى أنه قد تمكن من مساعدتك للتخلص من أوهامك.

- استحلفك بالله وبكل ما هو غالٍ وعزيز عليك أن تتركني وشأني أرجوك ان تخرج من حياتي لقد حولتها إلى جحيم لا يطاق.

مرت عدة أيام وليالٍ وذلك اللعين لا يفارقني لا ليلاً ولا نهارًا حتى أصبت بالانهيار. جاء يوم زيارتي الثانية للطبيب فذهبت إليه وأنا في حالة يرثى لها وما إن دخلت إلى غرفته حتى اصيب بالصدمة:

- خالد ماذا جرى لك؟ لقد فقدت الكثير من وزنك وتبدوا شاحبًا والحلقات السوداء تحيط بعينيك ثم ما هذه الكدمات على يديك هل تعرضت لمكروه؟

لا بد أنني اصبت بالعديد من الكدمات وأنا احاول القضاء على ذلك اللعين لأخطئه فترتطم يدي في الحائط أو إحدى قطع الأثاث في المنزل.

- سمير أرجوك أن تساعدني أرجوك أن تخلصني من هذا اللعين لقد دمر كل شيء في حياتي لقد انهى علي ونغص علي حياتي، لقد أفقدني القدرة على النوم، ودمر عقلي حتى أصبحت غير قادر على التركيز، وأفقدني أي قدرة على الأكل. أنت ترى بأم عينيك ما فعله بي فاستحلفك بالله أن تساعدني أنت أملي الوحيد بعد الله في التخلص من هذا الشيطان.

- حسناً حسناً يا خالد أرجوك فقط أن تهدأ وسأبذل قصار جهدي كي أساعدك.

بعد أن هدأت قليلا قال لي الطبيب لا بد لنا من إجراء بعض

الفحوصات السريرية كي نتأكد من أنك لا تعاني من أي أمراض عضوية.

- أرجوك يا دكتور لا داعي لإطالة الوقت فأنا متأكد من أنني اصبت بالجنون فقط صف لي أي علاج.

بائت كل محاولاتي مع سمير بالفشل ولم يكن أمامي إلا الخضوع لأوامره. أخرج قلماً من جيب جاكيت البدلة التي يرتديها وتناول ورقة من على طاولته وبدأ بكتابة الفحوصات المطلوب مني اجرائها. لائحة طويلة من الكلمات باللغة الإنجليزية المكتوبة بخط لا يمكن حتى لمحلل خطوط محترف قرأتها. لا بد لك من القيام بهذه الفحوصات في الحال..

- ليس بإمكانك الذهاب إلى المستشفى بمفردك، هل هناك من يمكنه أن يقلك إلى هناك؟

تذكرت في تلك اللحظة صديقي سالم "نعم يا دكتور سأقوم بالاتصال بصديقي كي يقوم بمرافقتي، لا عفواً دكتور صديقي خارج البلد".

لا اعلم من أين خطرت لي تلك الكذبة ففي اللحظة الأخيرة قررت أنني لا أريد لسالم أن يراني على هذه الحال ناهيك عن عدم رغبتي بأن يعلم بأنني أقوم بمراجعة عيادة المجانين هذه.

- حسنًا إذًا سأقوم بالاتصال بالمستشفى لإرسال سيارة الإسعاف لنقلك من هنا فأنا لا يمكن أن أسمح لك بالذهاب وحدك وأنت على هذه الحال.

- لا لا أرجوك يا دكتور سأذهب لوحدي.

- مستحيل. إما أن تطلب من أحد أقاربك أن يرافقك أو نقوم بطلب سيارة الإسعاف، خياران لا ثالث لهما.

لم أعلم ماذا افعل في ذلك الوقت فسلمت أمري لله ووافقت على طلب سيارة الاسعاف.

- لكن أرجوك يا دكتور لا اريدهم أن يأتوا إلى هنا لاصطحابي من العيادة.

- لماذا؟

- فقط أنا لا أرغب بأن يصحبوني من هنا أرجوك.

- حسنًا حسنًا لقد فهمت، أنت لا ترغب بأن يعلم أحد بأنك تقوم بزيارة اختصاصي للطب النفسي.

- نعم يا دكتور.

obeikan.com

- حسناً سأقوم بنقلك في سيارتي إلى منزلي فهو قريب من هنا ومن ثمَّ نطلب من المستشفى إرسال السيارة إلى هناك لترافقك إلى المستشفى.

- شكرًا يا دكتور.

غرفة مليئة بالأجهزة الغريبة وعشرات الأسلاك المثبتة بصدري العاري وقدمي ويديي، أشخاص غرباء يصحبوني من مكان إلى مكان، أدوات غريبة وباردة يتم إدخالها إلى أذني وفمي وأنفي، نفق مظلم يدخلوني إليه لبعض الوقت، عشرات الفحوصات الطبية، تصوير بالأشعة السينية، تخطيط للقلب، تصوير طبقي بأجهزة الرنين المغناطيسي، قياس لدرجات الحرارة ومستوى الضغط، فحوصات للدم، وغيرها من الفحوصات التي لم استطع أن أعلم ما هي!، معركة بكل معنى الكلمة تدور من حولي وأنا وحدي القتيل بينما الباقي يغادرون بعد إنهاء عملهم سالمين... وأخيرًا إبرة طبية تخترق يدي مباشرة إلى داخل أحد الأوردة وما هي إلا لحظات حتى غادرت هذا العالم وعدت إلى العالم الفسيح الأبيض الذي كنت قد زرته في ذلك اليوم عندما فقدت الوعي في المقهى. لا بد وأنهم قد قاموا بإعطائي جرعة مهولة من المنوم. ياه أخيرًا ها أنا استطيع النوم يا لها من نعمة عظيمة. أرجو الله أن يتركوني في هذا المكان وأن لا يعيدوني إلى ذلك العالم البغيض من جديد. لم أعلم كم مر عليَّ من الوقت وأنا مستغرق في النوم، عدَّة ساعات، عدَّة

أيام أم أشهر. أرى أمامي أشباحًا تدخل وتخرج من غرفتي واستطيع سماع بعض الأصوات وخيِّل إلي أنني سمعت صوت سالم.

- حمدًا لله على السلامة.

- سالم ماذا تفعل هنا؟ أين أنا؟ ما هذه الأجهزة المثبتة على جسدي؟

- لا تتكلم كثيرًا فقط قم بالاسترخاء وكل شيء سيكون على ما يرام، فقط استلقي هنا ونَلْ قسطً من الراحة فأنت بحاجة للراحة بعد كل ما مر بك.

- حسنًا، لكن أرجوك أن تخبرني ما حدث.

- لقد أصبت بإعياء مفاجئ وقام أحد أقربائك بنقلك إلى المستشفى قبل ثلاثة أيام لكن الحمد لله أنت الآن بخير.

- أحد أقاربي، من؟

- لا بد أنك كنت في زيارة لقريبك سمير حين أصبت بالإعياء فقام بنقلك إلى هنا لقد غادر قبل قليل بعد أن اطمئن إلى أنك بخير.

- آه سمير نعم تذكرت الآن.

الحمد لله أن سمير لم يخبره بأنه طبيبي المعالج، لقد كنت محقًا عندما قلت أنه يمكنني الوثوق به خلال زيارتي الأولى لعيادته، يا له من رجل صالح باركه الله.

- لكن أخبرني من أبلغك بأني هنا في هذا المستشفى فأنا لم أقم بإخبار أحد بذلك.

- لن تتمكن من الهروب مني مهما حاولت فأنا قدرك قالها وهو يطلق ضحكته المعتادة.

- دعنا من المزاح الآن من أخبرك أنني هنا؟

- عندما اختفيت عن الأنظار ولم أسمع منك قمت بالاتصال بهاتفك وعندما لم تجبني ذهبت إلى منزلك لكن لم تقم بفتح الباب لي وأخبرني صاحب البقالة المجاورة لمنزلك بأنه لم يرك منذ عدة أيام، حينها تيقنت من أن مكروهًا ما قد أصابك خاصة وأن زملائك في العمل اخبروني بأنك قد انقطعت عن العمل لعدة أيام، عندها لم يكن أمامي خيار أخر سوى إبلاغ مركز الأمن عن اختفائك. اعتقدت أن أحد تعيسي الحظ قد قام بخطفك ربما طمعًا بقطعة الخردة التي تملكها. دفعني كلامه للضحك وربما للمرة الأولى منذ أسابيع. والآن أرجوك أن تعود للنوم

والاسترخاء على أي حال فأنا بحاجة للمغادرة الآن للحاق بموعد مهم وقام بمغادرة الغرفة.

سالم! مرة أخرى على موعد مهم! ماذا يجري معه؟ هل وقع في الحب؟ لا هذا غير ممكن فهو طالما كان يقول لي أن النساء همٌّ ووجع رأس ولا يأتي منهن إلا المصائب. لما لا، لا شيء بمستحيل على قدرة الله سبحانه وتعالى.

والله يا سالم وجع الرأس والمصائب لا تأتي من النساء بل من الأطفال. انتفض جسدي بأكمله حتى كدت أسقط من سريري حين تذكرت ذلك اللعين. جلت بنظري في مختلف أرجاء الغرفة ولكن والحمد لله فإن ذلك الطفل اللعين لم يكن في المكان. لا بد أن العقاقير التي قام فريق الأطباء بحقنها في جسدي خلال الأيام الماضية قد قضت عليه. الحمد لله لقد انتصرت عليه وبإمكاني الأن الاستمرار بحياتي كالمعتاد وعدت للنوم مطمئناً لخروج ذلك اللعين من حياتي إلى الأبد. استيقظت في الصباح على صوت سالم من جديد:

- خالد، يا كسول كفاك نومًا هيا قم، لقد أذن لك الطبيب بمغادرة المستشفى، لقد انتصف النهار ألم تشبع من النوم بعد؟

قمت من سريري متثاقلاً وغادرنا الغرفة بعد أن قمت بتبديل ملابسي. توقف خالد ونحن نوشك على الخروج من باب الغرفة كمن تذكر أنه نسي شيئًا في الداخل:

- هل قمت بإحضار جميع أغراضك من الغرفة يجب أن تتأكد أنك لم تنسَ شيئًا هنا.

- والله يا سالم لا أذكر إذا كان بحوزتي شيء أم لا؟ عندما تم إحضاري إلى هنا، على الأغلب لم يكن معي شيء فأنا قد كنت في زيارة لقريبي سمير في ذلك اليوم.

- آه سمير، لقد كان قلقًا عليك ولم يفارقك طيلة مكوثك في المستشفى لا بد لنا من الأتصال به الآن لطمأنته بأنك بخير وأننا سنقوم بمغادرة المستشفى الآن، ما رقم هاتفه؟

أصابني سؤاله بالارتباك فأنا لا أعرف رقم هاتفه كل ما لدي هو رقم العيادة ومن سابع المستحيلات أن أدع سالم يتصل برقم العيادة.

- في الحقيقة لم اعد أتذكر رقمه، لكنه مسجل لدي في دفتر أرقام الهواتف في المنزل سأقوم بالاتصال به فور عودتي إلى هناك.

- لم تخبرني من قبل أن لك قريب اسمه سمير.

عاودني الارتباك من جديد وقلت متلعثمًا: "أنه قريب من الدرجة الثالثة أو الرابعة من ناحية والدي وأنا لا أراه إلا نادرًا".

- آه حسنًا، بالمناسبة هل هو طبيب؟

وقع علي سؤاله كالصاعقة، ذلك الغدار لا بد أنه أخبره بكل شيء، لقد اعتقدت أنه يمكنني الوثوق به، لقد أفشى سري ولن أسامحه على ذلك ما حييت.

- خالد ما بك صامت؟

- ماذا؟ لا شيء ماذا كنت تقول؟

- لقد سألتك إن كان قريبك طبيب.

- ما الذي يدفعك للاعتقاد بأنه طبيب، هل قال لك ذلك؟

- لا أبدًا، لكنه طوال إقامتك في المستشفى كان يطَّلع على التقارير الطبية ويقوم بمناقشة حالتك مع الأطباء بدراية فاعتقدت أنه طبيب.

شعرت بالارتياح، لقد حافظ سمير على السر لقد ظلمته.

- لا ليس طبيبًا لكنه قارئ نَهِم ولا بُد من أنه قد قام بقراءة بعض الكتب الطبية التي اكسبته بعض المعرفة بالأمراض وأعراضها.

أخذنا المصعد إلى الطابق الأرضي حيث بهو المستشفى الذي يتواجد به مكتب إخراج المرضى والصيدلة ومكتب المحاسبة. استمر سالم بالسير أمامي باتجاه المخرج فأوقفته قائلاً:

- مهلا يا سالم لا بد لي من التوجه لمكتب إخراج المرضى لإنهاء معاملات الخروج والاتفاق معهم على كيفية دفع تكاليف العلاج.

- لا تشغل بالك بهذه الأمور الآن، يمكنك العودة لإنهاء هذه الإجراءات فيما بعد.

- لا يجب أن أنتهي من ذلك الآن فأنا لا أعتقد أنهم سيسمحون لنا بالمغادرة قبل إنهاء الإجراءات.

- لا تقلق بشأن هذا الآن، كل ما عليك الآن هو أن تهتم بصحتك وأن لا تعود مجددًا لإهمالها.

آخ لا بد ان سالم قد تكفل بإنهاء الاجراءات وقام بدفع تكاليف العلاج والإقامة في المستشفى.

- سالم قل لي كم بلغت فاتورة المستشفى؟.

- يا أخي أنت لا بترتاح ولا بتخلي غيرك مرتاح هيا بنا الآن وسنقوم بمناقشة موضوع تكاليف إقامتك في قصر يلديز هذا فيما بعد وأطلق ضحكته المعتادة وواصل كلامه: ثم إن هذه مستشفى حكومي والعلاج به شبه مجاني.

- شكرًا يا سالم ولكن أرجو أن تخبرني بكم أدين لك؟

- على فكرة لماذا اختار والدك اسم خالد لك؟

- لماذا هل هناك آي شيء لا يعجبك في اسم خالد؟

- لا أبدًا لكن خطر لي لوهلة أنه كان يجب أن يطلق عليك اسم شاكر.

- شاكر! لماذا؟

- لأنك كلما التقينا تثير أعصابي بكثرة تقديمك للشكر لي، ألم نتفق فيما مضى على أن تتوقف عن هذه العادة المزعجة؟

سارت بنا السيارة باتجاه المنزل ولكن سالم قد توقف بإحدى الصيدليات على الطريق وقام بالدخول إليها وشراء شيء ما، اعتقدت بأنه ربما أراد شراء بعض حبوب الصداع فهو غالبًا ما يشكو من

obeikan.com

الصداع خاصة في فصل الشتاء لكنه عندما عاد إلى السيارة قام بتقديم الكيس الذي في يده لي: تفضل.

- ما هذا؟

- هذا الدواء الذي وصفه الأطباء لك، يجب عليك تناول حبة واحدة كل يوم قبل النوم لمدة أسبوعين لمساعدتك على الارتخاء والنوم.

- شكرًا يا سالم، لقد سببت لك الكثير من المشقة في الأيام الماضية وأنا أقدر كل ما فعلته وتفعله من أجلي.

- عفوًا يا شاكر عفوًا خالد، هل تحتاج لشراء أي شيء قبل التوجه إلى المنزل؟

- لا شكرًا لك.

أمضى معي سالم بعض الوقت في المنزل وعندما اطمئن إلى أن كل شيء على ما يرام غادرني بعد أن أخرج من جيب معطفه ورقة ووضعها على الطاولة وقال "هذه ورقة الإجازة المرضية الخاصة بك لقد قام الدكتور بمنحك إجازة من العمل لمدة أسبوع حتى تستعيد عافيتك تمامًا ولكن أرجو أن لا تتعود على الكسل".

أمضيت بعض الوقت في مشاهدة التلفاز لكن الأخبار التي كانت تبث قد بدأت تصيبني بنوع من الحزن، إذا لم أقل الاكتئاب، الأوضاع في مصر غير مستقرة على الرغم من مرور ما يقرب من سنتين على تغيير النظام والمظاهرات تعُم أرجاء الجمهورية من جديد، مواجهات مسلحة في ليبيا التي مضى على سقوط النظام فيها فترة مقاربة، الاتفاق ما بين الفرقاء في اليمن لا زال بعيد المنال، إحراق الأضرحة ذات القيمة التاريخية والدينية في تونس، تدخل القوات الفرنسية في مالي.

الاقتتال لا زال على أشدُّه ما بين قوات النظام ومسلحي المعارضة في سوريا وسقوط عشرات القتلى هذا اليوم، عشرات الآلاف من اللاجئين السورين في الأردن يقيمون في الخيام في مخيم الزعتري تحت أصعب الظروف الجوية ولا يبدو في الأفق أي أمل في حل وشيك للأزمة أمام تعنت النظام السوري وضعف المجتمع الدولي، المظاهرات التي اعتدنا عليها كل يوم جمعة في الأردن والمطالبة بمحاربة الفساد خرجت في عدد من مناطق المملكة، التفجيرات الارهابية في العراق لا زالت تحصد أرواح المزيد من الأبرياء كل يوم، وغيرها من الأحداث المأساوية في مختلف أنحاء العالم. عالم مجنون بكل ما تحتوي الكلمة من معنى. ربما من الأفضل لي أن أقوم بقراءة أحد الكتب التي كنت قد اشتريتها من إحدى مكتبات وسط البلد في محيط المسجد الحسيني. وقع اختياري على ديوان شعري للشاعر الأردني"حيدر محمود" وانهمكت في القراءة محاولاً

نسيان كل تلك الأخبار المأساوية إلى أن أصبت بالنعاس. توجهت إلى سريري ولكن قبل أن أستلقي في سريري تذكرت أنه يجب عليَّ أن أتناول الدواء الذي قام الطبيب بوصفه لي. ملأت كأسًا بالماء وتناولت حبة دواء من العلبة التي كان سالم قد قام بإحضارها من الصيدلية وقبل أن اضعها في فمي فإذا بصوت يصرخ في وجهي:

- إياك أن تفعل.

- ذلك اللعين من جديد.

- ماذا تريد الآن، أما كفاك ما أوصلتني اليه؟ لماذا عدت للظهور في حياتي؟ هل أنت مصمم على القضاء عليّ؟.

بدأت ملامحه تتغير وبدا عليه القلق والارتباك:

- أرجوك لا تتناول هذه الحبة، أقسم لك أنك لست بحاجة إليها وأعدك بأنك ستتمكن من النوم كالطفل من دونها لكن أرجوك لا تتناولها، أرجوك لا تقوم بسجني من جديد، أما كفاك أنك سجنتني طوال عشرين عامًا؟

- أنا سجنتك عشرين عام! أين؟ كيف؟

- سأقوم بإخبارك كل شيء لكن أرجوك أن لا تقوم بتناول هذه الحبة الآن، دعنا نعقد اتفاقًا لمصلحة الطرفين، أنت ترغب بأن أختفي من حياتك وأنا لا أرغب بأن أسجن من جديد، ما رأيك أن نتفق على ما يلي...

أنا سأقوم بالاختفاء من حياتك لمدة شهر وفي المقابل عليك ان لا تتناول هذا الدواء وتتوقف عن زيارة طبيب المجانين ذلك للمدَّة نفسها، ولكن بعد انتهاء الفترة المحددة سأقوم بزيارتك من جديد وإذا أردت سوف أخبرك بكل شيء عني ثم سأختفي من حياتك إلى الأبد.

- لماذا لا تخبرني بكل شيء الآن أم أنك تحتاج للوقت لتدبير مؤامرة جديدة؟

- لا أقسم بالله أنني لا أنوي سوءً بك، دعنا نمضي فيما عرضته عليك، لن تخسر شيئًا إذا جربت، أقسم لك بأنك لن تندم.

لا أعلم لماذا؟ لكني شعرت بأنه صادق فيما يقول فقمت بالتفكير بعرضه لبعض الوقت وهو يقف أمامي دون حراك والخوف بادٍ عليه وينظر إليّ باستعطاف..

- حسنًا أنا موافق على ما عرضته علي لكني أقسم بالله أنني لن أدع وسيلة ممكنة للقضاء عليك وإلا وسأستعملها إذا ما رأيتك أو سمعت صوتك طوال المدة المتفق عليها.

بدا عليه الارتياح وكأن ثقل عظيم قد ازيح عن اكتافه:

- موافق شكرًا لك والآن سأذهب حسب الاتفاق واختفى من أمامي بلمحة بصَر.

أمضيت بعض الوقت وحبة الدواء في يدي وكأس الماء في يدي الأخرى وفكرة تناول هذه الحبة تراودني إلا أنني قررت أن أحترم الاتفاق. لكن ما هذه الحبة؟ لماذا لا يريدني أن أتناولها؟ لماذا أصيب ذلك اللعين بالهلع عندما رآني أهُم على تناولها؟ لا يهم الآن المهم أن يختفي من حياتي الآن وبعدها لكل حادثٍ حديث وتوجهت للنوم.

الشمس بدأت تتسرب من خلال نافذة الغرفة وتشق طريقها إلى داخل المنزل بصعوبة فهي لا زالت منهكة ولم تستعِد عافيتها بعد، على إثر صراعها مع الغيوم التي منعتها من الوصول إلى الأرض لعدة أسابيع. أثار ضوؤها الأمل في نفسي خاصة أنني قد أمضيت أربعة أيام الآن دون أن أغادر المنزل وسبقها ثلاثة أيام من الإقامة في المستشفى. يبدو أن كلام سالم صحيح لقد بدأت أتعود على الكسل ولا بُد لي من الخروج

من المنزل ولو لفترة وجيزة ويبدو أن اليوم مناسب للقيام بذلك فلا أمطار أو رياح والشمس تشق طريقها الطويل إلى الأرض. استجمعت قواي وهممت بمغادرة المنزل. وقفت بالباب مترددًا لبعض الوقت ولا أدري ماذا أصابني! فلقد شعرت بأني أخرج إلى العالم الخارجي لأول مرة في حياتي وأني خائف من مواجهة العالم خلف هذا الباب. بضعة أيام فقط أمضيتها في المنزل والآن أجد نفسي مصابًا بنوع من الرهاب من العالم الخارجي الذي أمضيت ما يزيد على العقدين ونصف من الزمان وأنا أخوض في غماره وأسبر غوره دون أن أتردد يومًا. هل الإنسان ضعيف إلى هذا الحد؟ هل أنَّ تجربةً سيئةً واحدة في حياته تجعله مكبلاً بهذا الشكل؟ سمعت صوتًا بداخلي يسخر مني:

- يا خواف، ماذا بك يا جبان؟ مما تخشى؟ ألم تصدِّع رؤوسنا وأنت تتحدث على حبك للاستكشاف والخوض في مجهولات هذا العالم؟ ما بالك تقف هنا كمن أصابه الشلل؟ هيا تشجع واخرج إلى الخارج، لا يوجد ما يدعو للقلق هيا افتح الباب واخرج.

- أنا لست جبانًا ولن أكون في يوم من الأيام جبان ولا بُد لي من إثبات ذلك لنفسي الآن بفتح هذا الباب والخروج، نعم أنا لست جبانًا.

- مددت يدي إلى مقبض الباب ولكني ترددت في فتحه. ازداد الصوت في داخلي... جبان، يا للعيب، جبان، جبان.

لم استطع تحمل الصوت أكثر من ذلك فقمت وبحركة غير إرادية بفتح الباب والاندفاع إلى الخارج. تنفّست الصعداء فور خروجي وشعرت بنشوة الانتصار. إلى هذه اللحظة لا استطيع أن أفسر سبب ما حصل. لا بُد لي من مناقشة ذلك مع سمير بأقرب وقت ممكن. لكني عاهدت ذلك اللعين على التوقف عن زيارة العيادة لمدة شهر كامل ولا بد لي من المحافظة على العهد. لا بأس يمكنني الانتظار إلى انتهاء المهلة ومن ثم سأقوم بمناقشة الأمر مع سمير المهم أنني في الخارج الآن. الهواء نقي هاهنا على عكس رائحة الهواء المعتق في داخل المنزل والمختلط برائحة الغاز الذي يتسرب من المدفأة. أشعر بالانتعاش الآن وبرغبة في أن أمضي بعض الوقت في التجول في المنطقة. هبطت الدرج متوجهًا نحو البقالة لإلقاء التحية على العم صالح والاعتذار له عن تأخري عن سداد المبالغ المترتبة علي منذ فترة.

أسفل الدرج كانت سيارتي تقف في مكانها منذ عدة أسابيع وأحسست بأنها تطلق نحوي نظرات اللوم والعتاب لإهمالي إياها طوال تلك الفترة وكأنها تقول لي: يا قليل الوفاء، عندما كنت قادرة على أن أقلك من مكان إلى مكان كنت تهتم بي وتسأل عني كل يوم، والآن بعد أن فقدت قدرتي على خدمتك تقوم بإهمالي بهذا الشكل، أولست أنت السبب فيما حلّ بي؟ أولم أصل إلى هذه الحال وأنا أحاول إيصالك إلى منزلك في ظل أقصى الظروف؟ يا لك من ناكرٍ للجميل!. فعلاً لا يؤتمن

جانبكم يا بني البشر. لا بد لي من الاهتمام بأمر هذه السيارة في القريب فعلا معها حق لا يجب أن أهملها بهذا الشكل بعد كل ما قامت به من أجلي.

استقبلني العم صالح الذي كان يجلس على كرسيه أمام بقالته محاولاً استمداد بعض الدفء من أشعة الشمس وطرد الرطوبة التي تراكمت في عظامه الهشة خلال الأسابيع الماضية استقبلني بابتسامة صادقة وعلامات السرور بادية على وجهه الذي اختفت ملامحه خلف التجعدات وخطوط الزمان التي ملأت خديه وجبينه:

- حمدًا لله على السلامة! لقد اشتقنا إليك، أين كنت؟

- والله يا عم صالح كنت في المستشفى. قبل أن أكمل حديثي قاطعني وقد تبدلت ملامحه:

- المستشفى! خير إن شاء الله! لا زلت صغير السن على ذلك ياولدي.

يا ولدي، ياه ما أجمل هذه الكلمة عندما ينطقها العم صالح.

- لا تقلق يا عم مجرد إرهاق بسيط وزال والحمد لله، ليس بالأمر المهم، وعلى أي حال أنا الآن بخير كما ترى.

- حمدًا لله على سلامتك يا بني، واعذرني إذا لم أقم بالسؤال عنك أو زيارتك فأنا لم أعلم إطلاقًا بأنك أدخلت إلى المستشفى، أعذرني يا ولدي.

- شكرًا لك يا عم ولا داعي للاعتذار فأنا أعلم مقدار محبتك لي وأنا فعلاً أعتبرك كوالدي. بالمناسبة أنا أعتذر منك كوني تأخرت في سداد المبالغ المستحقة عليّ وأعدك بأني سأسددها في القريب إن شاء الله.

- سامحك الله يا خالد، ألم تقل قبل قليل أني في مقام والدك، هل يوجد فرق بين الابن ووالده، أرجوك لا تكترث لهذا الأمر ولا تذكره أمامي مرة أخرى وإلا مارست حقي الأبوي وقمت بشد أذنيك.

- شكرًا لك يا عم، المهم كيف أحوالك هل تحتاج إلى أي شيء؟

- الحمد لله كل شيء بخير نعمة وفضل من الله.

- الحمد لله. حسناً يا عم، لا بُد لي من الاستمرار في طريقي فأنا أجلس في البيت منذ عدة أيام وبدأت أشعر بأن قدميَّ تعودتا على الكسل ولا بُد لي من إعادة النشاط إليهما بالتجول قليلاً.

- يمكننك القيام بذلك لاحقًا أما الآن فاحضر كرسي من الداخل واجلس بقربي دعنا نحتسي بعض الشاي بالنعناع تحت أشعة الشمس فأنا اشتقت للاستماع لحديثك.

- أمرك يا عم.

أمضيت بعض الوقت أتبادل أطراف الحديث مع العم صالح. أحاديثه دائما ممتعة وجميلة ويفوح من كلماتها عبق التاريخ ورائحة الزمن الجميل حين كانت مدينة عمان مجرد قرية صغيرة وكان الناس جميعًا يعرفون بعضهم بعضًا ويخافون علىّ بعضهم بعضًا. كم أحب الاستماع إلى أحاديث العم صالح فدائمًا ما تملئني بالتفاؤل والأمل. بعد أن غادرت بقالة العم صالح بدأت بالسير دون أن يكون لي وجهة محددة إلى أن وجدت نفسي بالقرب من المدرج الروماني في وسط البلد، ياه كيف وصلت إلى هنا؟ لا بد أنني قد كنت شارد الذهن فلم انتبه إلى أنني ابتعدت إلى هذا الحد عن منزلي. لا يهم فأنا فعلاً أشعر بالنشاط وبتحسن في مزاجي الأن.

تذكرت في تلك اللحظة نصيحة سمير لي بأنه يتعين علي ممارسة الرياضة ثلاثة مرات في الأسبوع على الأقل للتخلص من الطاقة السلبية على حسب تعبيره وعلى الرغم من أني لاأعلم ماذا كان يقصد لكني أشعر بالنشاط والانتعاش بعد أن قمت بالسير والتجوال في المكان ولا بُد لي من القيام بذلك باستمرار. عدت أدراجي متوجها باتجاه ساحة المسجد الحسيني وعرجت خلال سيري على سبيل الحوريات. هناك عشق غريب يربطني بهذه الأماكن وأشعر بأنني أعود بالزمان إلى الوراء

كلما تجولت بين بنايات وأزقة هذا المكان. أمضيت معظم النهار متجولاً في الأسواق وقمت بتناول طعام الغذاء في أحد مطاعم المدينة القديمة ومع بدء غياب الشمس استقليت سيارة أجرة وتوجهت إلى منزلي مملوء بالنشاط والحيوية. فور عودتي إلى المنزل قمت بالاتصال بسالم للاطمئنان عليه، فأنا لم اسمع منه منذ اليوم الذي رافقني فيه إلى المنزل بعد خروجي من المستشفى لكن هاتفه كان مغلقًا.

حسناً لا بد أنه في أحد مواعيده المهمة التي تكررت في الفترة الماضية ولا بد لي من أن أحاول أن أحمله على إخباري عن هذه المواعيد. نظرت إلى الساعة فإذا بها تقترب من السابعة مساءً. لا بد أن الدكتور سمير في العيادة الآن ولا بد لي من الاتصال به لشكره على اهتمامه بي في ذلك اليوم. أجابت السيدة التي تعمل في العيادة اتصالي لكن سمير لم يكن متواجدًا في ذلك الوقت. طلبت منها أن تبلغه بأنني قمت بالاتصال به وأنني سأعاود الاتصال به في الغد.

- لا اعتقد أنه سيأتي إلى العيادة غدًا يا أستاذ خالد.

- هل هو بخير؟

- أعتقد ذلك.

- ماذا تعنين بقولك أعتقد ذلك، هل هو بخير أم لا؟ أرجوك أن تخبريني.

- لا لا هو بخير لكن..... وصمتت قليلاً.

- لكن ماذا؟

- في الحقيقة لقد فقد سمير زوجته في الأمس...

- ربنا يرحمها.

قمت بأخذ العنوان الذي تقام به مراسم العزاء وقررت أن أتوجه مباشرة لتقديم واجب العزاء للدكتور سمير فهذا أقل ما يمكنني القيام به بعد كل العناء الذي تكبده من أجلي.

سرادق واسع والكراسي تصطف بداخله على شكل صفوف متقابلة، مئات الأشخاص الذين جاءوا لتقديم واجب العزاء، الدكتور سمير يقف في مدخل السرادق يتقبل التعازي والحزن بادٍ على وجهه، عدد من الأشخاص الذين يقومون بتقديم القهوة العربية (السادة كما هو متعارف عليها) والماء على الموجودين، أحاديث متنوعة يتبادلها الموجودون وكأنهم في ملتقى اجتماعي لا في بيت عزاء. قدمت واجب العزاء للدكتور سمير ودخلت إلى السرادق وتوجهت إلى أحد الكراسي للجلوس.

- خالد، تفضل هنا.

من هذا الذي يناديني باسمي، فأنا لا أعرف أحدًا هنا؟ اتجهت بنظري نحو مصدر الصوت فاذا به سالم برفقة والده وشقيقه الأصغر. سالم!

قمت بمصافحة والد سالم وشقيقه ثم جلست بجوار سالم متعجبًا من وجوده ووالده وشقيقه هنا. لم استطع كتم فضولي عن سبب وجوده طويلاً فبادرته بالسؤال:

- سالم ما الذي جاء بك الى هنا؟

- نفس السبب الذي جاء بك.

- ماذا تعني؟

- أعني أنني جئت لتقديم واجب العزاء لأحد الأقرباء تماما كما تفعل أنت.

- الأقرباء! ماذا تقصد؟ هل تربطك علاقة قرابة بسمير؟

- نعم، زوجة سمير ابنة عم والدتي.

- أصبت بالدهشة ولكني تداركت الأمر سريعًا.

- لكنك يا سالم لم تخبرني من قبل بأن سمير قريبك.

obeikan.com

- صحيح ولكن أنت أيضًا لم تخبرني بأنه قريبك أيضًا، بالمناسبة ما صلة القرابة بينك وبينه؟.

بدأ العرق يتصبب من جبيني وفقدت كل قدرة على الكلام فلا بُد أن سالم يعلم أنني قد قمت بالكذب عليه عندما أخبرته بأن سمير قريبي وهو يحاول الآن الإيقاع بي، لا أعلم بماذا أجيب! لكني قررت في تلك اللحظة أن اتوقف عن إخفاء الأمر وإبلاغ سالم بكل شيء عن علاقتي بالدكتور سمير:

- بصراحة يا سالم لا تربطني أي علاقة قربى بالدكتور سمير.

- ماذا! لماذا أخبرني إذًا بأنه أحد أقاربك عندما التقيته بالمستشفى؟

- لأنه رجل صالح ويمكن الوثوق به.

- ماذا تقصد؟

- أقصد... وتلكئت قليلًا بالإجابة لكني لم أجد بُدًا من إطلاعه على الحقيقة... في واقع الأمر أن علاقتي بالدكتور سمير لا تتعدى علاقة المريض بطبيبه المعالج. اعتلت الدهشة والاستغراب وجه سالم. نعم يا سالم فأنا كنت أعاني من بعض الأعراض التي سببت لي الإزعاج

واعتقدت أنه من المناسب استشارة اختصاصي في الطب النفسي ولحسن الحظ وقع اختياري على الدكتور سمير.

- حسنًا، لكنك لم تجبني على سؤالي لماذا قام بإخباري بأنه قريبك؟

- لقد قلت لك لأنه شخص جدير بالثقة.

بدا التململ على تعابير وجه سالم، فإجابتي لم تعجبه، فلم أجد بُدًا من إخباره بالسبب الحقيقي لمعرفتي بأنه إذا أراد أن يعرف شيئًا فإنه لا يألو جهدًا في ملاحقة الأمر إلى أن يحصل على الإجابة:

- ببساطة أنا لم أكن أرغب بأن يعلم أحد بأنني أقوم باستشارة اختصاصي للطب النفسي ولذلك في ذلك اليوم رفضت أن يتم نقلي من العيادة إلى المستشفى مباشرة فقام الدكتور سمير بنقلي إلى منزله ومن ثم طلب من المستشفى إرسال سيارة الإسعاف إلى منزله وأعتقد أنه أدرك بأنني لا أريد أن يعلم أحد بوضعي الصحي ولذلك قال لك بأنه أحد أقاربي، ولكن لماذا لم تخبرني أنت في المستشفى بأن هناك علاقة قُربى تربطك به؟

- لقد أردت إبلاغك بذلك ولكن حين أنكرت أن سمير طبيب حين سألتك عن ذلك اعتقدت بأن هناك ما تحاول أن تخفيه عني ولذلك لم أشأ أن أخبرك بذلك إلى أن يأتي الوقت المناسب.

غريبٌ أمر هذه الدنيا فأنا قد قمت باختيار هذه العيادة البعيدة خصيصًا كي لا يعلم أحد بأني استشير طبيبًا نفسيًا وخاصة سالم وها أنا الآن أجد بأن القدر قد قادني إلى أحد أقاربه، فعلاً لقد كان سالم صادقًا عندما أخبرني يومًا ممازحًا بأنني لا يمكنني الهروب منه. تذكرت في تلك اللحظة كلمات أغنية تقول "أنا قدرك ونصيبك، ونصيبك حيصيبك" ولو كنت الآن في مكان غير المكان لرفعت صوتي بالغناء مرددًا كلمات تلك الأغنية.

مرَّت الأيام سريعة ولم يبقَ من المهلة التي منحني إياها الطفل سوى أيام ولكن ما كان يسيطر على جُل تفكيري هو الوقت المتبقي لي في العمل، فلم يبقى على مهلة الثلاثة أشهر سوى أسبوعين، وحتى هذه اللحظة لم أتمكن من إيجاد عمل آخر. كنت في الأيام الماضية قد قمت بإصلاح سيارتي ومن ثمَّ بيعها حيث أنه كان الحل الوحيد أمامي لتسديد بعض الالتزامات المترتبة علي ولكن المبلغ الذي حصلت عليه بعد خصم قيمة الأقساط المتبقية للبنك بالكاد كان كافيًا لدفع إيجار المنزل والفواتير المترتبة عليه من ماء وكهرباء وفاتورة هاتفي النقال والمبلغ المترتب عليّ للعم صالح. لم أقم بسداد المبالغ المترتبة عليّ لسالم فقد كنت قد اقترضت منه مبلغًا من المال منذ أشهر والآن يجب أن أضيف إليه قيمة فاتورة المستشفى التي تكفل بها. على الرغم من عودتي لممارسة حياتي الطبيعية منذ أن غاب ذلك الطفل من حياتي إلا

أنني أشعر بأن هناك أمرًا ما يمنعني من الراحة والاسترخاء ولا زلت أعاني من بعض الأرق أحيانًا. بعد تفكير مستفيض وجدت أن أولى اهتماماتي الآن يجب أن تكون إيجاد فرصة عمل مناسبة. كثفت عملية البحث ولم أترك أي فرصة يتم الإعلان عنها في الصحف أو على مواقع البحث الالكترونية وإلا وتقدمت لها ولكن لم أتلقى حتى الآن أي رد من أي مؤسسة. قمت بالتوجه إلى عدد من شركات التوظيف ولكن دون جدوى فجميعهم قد حفظوا ردًا واحدًا "اترك سيرتك الذاتية لدينا وسنقوم بالاتصال بك في حال توفر فرصة مناسبة".

الأيام تركُض ولا أمل في أن أتمكن من إيجاد عمل قبل انتهاء المدة وقد أصبح في حكم المؤكد الآن أنني سأصبح رقمًا في إحصائيات العاطلين عن العمل. بدت كل الأبواب مغلقة ولا أرى أي بصيص أمل. تساؤلات عديدة تدور في ذهني، كيف سأتمكن من دفع إيجار المنزل؟ إلى متى سيستمر العم صالح الطيب بإعطائي حاجياتي وهو يعلم أن لا أمل قريب بأن أقوم بسداد أثمانها؟ إذا تم فصل هاتفي كيف سيتمكن أصحاب العمل من الاتصال بي في حال توفر أي فرصة عمل؟ من أين سأتمكن من دفع قيمة فواتير الماء والكهرباء؟ والكثير من الهواجس التي انقضت على عقلي بكل شراسة في ذلك الوقت. لا، لا يمكن أن أسمح بأن أصل إلى هذا الوضع ولا بد لي من القيام بأي شيء كي أُجنِّب نفسي هكذا مأساة. خرجت من المنزل دون أن أعرف إلى أين سأتوجه أو ماذا

سأفعل ولكني لم أعد قادرًا على البقاء جالسًا في مكاني في انتظار أن تقع الكارثة. رآني العم صالح فقام بمناداتي كي أمضي بعض الوقت معه لكني اعتذرت له.

- لماذا أنت على عجلٍ، ألا يمكنك أن تمضي بعض الوقت مع عجوز مثلي، ما الأمر المهم الذي سيمنعك من احتساء الشاي معي؟

- عذرًا يا عم صالح ولكني متوجه للبحث عن عمل.

- البحث عن عمل! في هذا الوقت! لا بد أنك ترغب في العمل لصًا فلا أعتقد أن أي مؤسسة أو شركة تستقبل طلبات العمل في هذا الوقت المتأخر من الليل.

نظرت إلى ساعتي فإذا بها العاشرة والنصف مساءً! معه حق العم صالح لا يوجد أي مكان يمكنني أن أبحث فيه عن عمل الآن إذا فمن الأفضل أن أقوم باحتساء الشاي معه على الأقل فإن أحاديثه الجميلة ستنسيني مأساتي ولو لحين.

- قل لي يا خالد، لماذا تريد البحث عن عمل؟ هل تخطط لترك عملك؟

- والله يا عم عملي هو الذي يخطط أن يتركني.

- ماذا تقصد؟.

- لقد قررت الشركة الاستغناء عن خدماتي ولم يتبقَ لي من الوقت سوى أسبوعين قبل أن أصبح في عِداد العاطلين عن العمل.

- ولكن لماذا سينهون خدماتك، هل قمت بارتكاب خطأ ما أو قصرت في عملك؟

- نعم لقد ارتكبت خطأ كبيرًا يا عم.

- سامحك الله يا خالد ولماذا قمت بذلك؟ لماذا لم تفكر قبل أن تُقدم على ارتكاب خطأ جسيم يؤدي إلى إنهاء خدماتك من الشركة؟ قل لي يا خالد ماذا فعلت ربما نستطيع أن نجد حلاً ونقنع الشركة بإبقائك في عملك؟

- لا أعتقد أن ذلك ممكن يا عم.

- يا إلهي! هل خطأك كبير إلى هذا الحد؟

- أكثر مما تتصور يا عم.

- خالد أنا لم أعهدك هكذا، لقد عرفتك شابًا ملتزمًا ومجدًا فماذا حصل لك؟

obeikan.com

- لم يحصل لي شيء يا عم وهذا هو خطأي.

- هل هذا لغز، ماذا تعني بأنه لم يحصل لك شيء، ومع ذلك ارتكبت خطأ أدى بك إلى فقدان وظيفتك التي أنت في أمس الحاجة لها؟ سامحك الله يا خالد هل تسخر مني بعد كل هذه السنين ؟!

لاحظت علامات الحزن بادية على محيى العم صالح فبادرت مباشرة لتصحيح الموقف:

- حاشا لله أن أسخر منك يا عم، ولكن ما كنت أحاول أن أقوله لك أن الالتزام بالعمل والاجتهاد به غير كافي لاحتفاظ الشخص بعمله في هذه الأيام ولا بد له من القيام بأمور أخرى إذا ما أراد الحفاظ على عمله كأن يداهن مديره في العمل أو يعمل على التجسس لصالحه واطلاعه على أخبار زملائه أو أن يقوم بمساعدة مديره على القيام بأعمال غير مشروعة وهذا هو خطأي يا عمِّ أنني لم أقم بأيٍ من هذه الأمور ولكوني مغفلاً اعتقدت أنَّ الاجتهاد في العمل كافٍ للمحافظة على وظيفتي.

انفرجت أسارير العم صالح وقال بارتياح الحمد لله على ذلك.

- هل أنت فرح يا عم لأني سأخسر عملي؟!

- بل قل أني فَرِحٌ لأنك لم تخسر نفسك يا ولدي فالعمل والمال وأي شيء آخر يمكن تعويضه ولكن إن انحرفت عن مبادئك فإن مال العالم كله لن يعوضك عنها.

- والله يا عمِّ المبادئ في هذه الأيام أصبحت عبئًا على صاحبها وتؤدي به إلى فقدان مصدر عيشه وتؤلب الناس عليه حتى يصبح محاربًا ومنبوذًا ويتخلى عنه أقرب الناس إليه.

- لا تحزن يا ولدي ولا تيأس من رحمة الله فهو لا ينسَ عباده ولا يتخلى عنهم، لكنه إذا أحب عبدًا امتحنه وما تمر به ما هو إلا اختبار من عند الله وتأكد أنك ستخرج من حالك هذا أقوى وأفضل وستثبت لك الأيام ما أقول. ثق في ما أقوله لك فأنا قد اختبرت الحياة جيدًا ومرَّت علي أيام في غاية الصعوبة لكن ربي لم يتخلَّ عني يومًا وكنت كلما اعتقدت أن أبواب الدنيا سدت في وجهي فتح الله لي أبواب السماء ورزقني من حيث لا أحتسب. تصبر يا ولدي فما بعد الضيق إلا الفرج ولكن عليك أن تحافظ على مبادئك وتتقرب الى الله ولا تيأس من رحمته فلا شيء يغضب الله سبحانه وتعالى أكثر من أن ييأس العبد من رحمته.

- كلامك جميل يا عم ولكن زمننا غير زمنك والناس قد تغيرت حتى أصبحت الوحوش تخجل مما يفعله البشر ببعضهم.

- استغفر الله يا ولدي فالله يغير ولا يتغير وإن تبدل الزمن فإن سعة رحمة الله لا تتغير فالله عند حسن ظن عبده به، سلم أمرك لله وهو كفيل بك.

- ونعمَ بالله يا عم.

قام العم صالح بإعداد الشاي بالنعناع الذي أكاد أجزم بأنه ليس على وجه الخليقة من يعده أفضل منه وأمضينا بعض الوقت في تبادل الأحاديث إلى أن انتصف الليل فعدت إلى منزلي وقد أزال كلام العم صالح الغمّ من نفسي. أوكلت أمري لله كما نصحني العم صالح وذهبت للنوم.

توجهت في الصباح لعملي كالمعتاد وبدأت بجمع أغراضي الشخصية وتفقد أدراج مكتبي كي أُعد نفسي للمغادرة في الأسبوع القادم. في منتصف يوم العمل طلبني مالك الطرطور إلى مكتبه لرغبته في الحديث معي:

- اسمعني جيدًا يا أخي خالد، أنا أعلم أنك مستاء من قرار الشركة، وأنا أقدر شعورك لكني أريد ان أوكد لك بأنني قد بذلت كل جهدي للإبقاء عليك لكن ما باليد حيلة، وأنا على الرغم من كل غضبك علي والشتائم التي وجهتا لي لا أزال أحترمك وأقدرك وأقدر مجهوداتك التي بذلتها في

العمل ولو كان الأمر بيدي لما تخليت عنك أبدًا. أنا لا أعلم ما السبب الذي يدفعك للاعتقاد بأن لي يد في ما حصل، فعلى الرغم من أننا قد لا نتفق معًا في كثير من الأمور إلا أن هذا لم ولن يقلل من تقديري لك ولمجهوداتك، على كل حال هذا الأمر ليس ذو أهمية الآن.

قام مالك بتعديل جلسته في مقعده متخذًا هيئة من يتهيأ لإلقاء خطاب مهم. لا بد أنه سيقوم بإسماعي أحد خطاباته الرنانة الكلمات الفارغة المعنى التي اعتدت على سماعها منذ ثلاث سنوات. نظر نحوي وللمرة الأولى منذ أن أبلغني بقرار الشركة نظر مباشرة إليَّ دون أن يخفض عينيه إلى الأرض كي يهرب من نظرات الاحتقار التي لم أبخل أن أرمقه بها منذ ذلك اليوم وعاد لإكمال حديثه:

- هل تمكنت من إيجاد عمل أخر يا خالد؟

- لا تقلق يا مالك، الرزق على رب العباد.

حاول أن يخفي امتعاضه من مناداتي له باسمه الأول دون أي ألقاب لكن تعابير وجهه فضحته:

-لا بأس يا خالد، لقد طلبت الحديث إليك اليوم لأبلغك بأن الشركة قد قامت بالتعاقد على مشروع جديد في الأسبوع الماضي ولذلك فنحن بحاجة لتمديد فترة عمل اثنين من المهندسين الذين قررنا أن نستغني

عن خدماتهم لمدة أربعة شهور أخرى حتى نتمكن من إنجاز هذا المشروع في الوقت المحدد، ولمعرفتي بأنك تملك الخبرة الكافية في إنجاز مثل هذه المشاريع فقد نسبت لمجلس الإدارة بتمديد عملك في الشركة لأربعة شهور أخرى واليوم قد حصلت على الموافقة وأرجو أن يكون لديك الاستعداد للاستمرار في العمل معنا إلى أن نُنهي هذا المشروع.

للوهلة الأولى أردت أن أرفض عرضه هذا فلقد تخلَّى عني في السابق، فلماذا أقف معه الآن؟ خاصة وأني أعلم أنه لم يطلب إليَّ ذلك إلا لأنه يعلم بأن وجودي سيجنبه الكثير من التعب والعناء في متابعة إنجاز المشروع. كم رغبت في تلك اللحظة أن أرفض عرضه كي أعاقبه على تخليه عني ولكن ظروفي لم تكن تسمح لي بالقيام بذلك، فأنا إن رفضت عرضه هذا سأصبح عاطلاً عن العمل. وافقت على عرضه مرغمًا فعلى الأقل سيمنحني ذلك مزيدًا من الوقت للبحث عن عمل آخر. غادرت مكتبه وعلى الرغم من أنني اتخذت قراري ذلك مرغمًا إلا أني شعرت بنوع من الارتياح كون ذلك سيؤجل الكارثة لعدة أشهر ربما تكون كافية لإيجاد حل مناسب لهذه المعضلة... الحمد لله على كل حال.

قمت بالاتصال بسالم بعد خروجي من مكتب مالك فلقد شعرت برغبة غريبة بمشاركة أحدهم هذا الخبر الشبه سار ولم يخطر على بالي في تلك اللحظة سوى صديقي سالم. أبلغته بالحديث الذي دار بيني وبين

مالك واتفقنا على الالتقاء بعد العمل لمواصلة الحديث ومحاولة التفكير بما يجب عليَّ فعله خلال هذه المهلة الجديدة لضمان إيجاد عمل آخر.

التقيت سالم في أحد مطاعم عمان الغربية وأمضينا معًا بعض الوقت نقلب جميع الاحتمالات ونفكر في كل الحلول الممكنة. بدأ سالم في ذلك المساء شارد الذهن بعض الشيء ووجهه شاحب وقد اشتد عليه الصُّداع الذي كان يعاني منه مؤخرًا ولم تنجح أقراص الصداع التي تناول منها أكثر من قرص في التخفيف من ذلك الصداع اللعين. حاولت أن أقنعه بمراجعة الطبيب لمحاولة التعرف على سبب هذا الصداع لكنه رفض ذلك مؤكدًا لي بأنه سيزول إذا ما نال قسطًا من الراحة عند عودته للمنزل. لم أرغب أن أتركه يتوجه للمنزل لوحده فعرضت عليه أن أرافقه لكنه أصرَّ على أنه بخير وأنه ليس بحاجة لمرافقتي له. ودعت سالم قرابة الساعة التاسعة مساءً ثم توجهت إلى منزلي. عرّجت في طريق عودتي على العم صالح وأبلغته بأنني سأبقى في عملي لبضعة شهور أخرى ففرح بذلك.

- أترى يا خالد، لقد قلت لك في الأمس بأن الله لن يتخلى عنك.

- الحمد لله يا عم ولكن هذا لفترة مؤقتة.

- لا تقلق يا خالد فإن الله سيتدبر أمورك وإن شاء الله ستكون بأحسن حال، فقط تحلى بالصبر واشكر الله على كل شيء خيرًا كان أو إن بدا لك بأنه شر.

اليوم الجمعة وهو يوم إجازتي الأسبوعية ولذلك فلقد سمحت لنفسي بالاستمرار في النوم حتى ساعة متأخرة من النهار. ابتدأ الشتاء بالانحسار وبدأ الربيع يعلن عن قدومه بنشر الخضرة على سفوح الجبال ونشر رائحة الأزهار الجميلة في الأجواء. منظر ساحر لجبال عمان السبعة يزيده جمالاً منظر أزهار الأقحوان البري التي نبتت في كل مكان. استعادت المدينة نشاطها بعد فترة السبات الشتوي التي مرت بها خلال الأشهر القليلة الماضية. نهضت من سريري وقمت بفتح النافذة للسماح للهواء النقي بالدخول إلى الغرفة أملاً في أن يتمكن من هزيمة رائحة هواء الشتاء الذي تخمر في داخل المنزل.

- نعم ذلك أفضل فالهواء النقي يجدد النشاط.

إنه ذلك الطفل من جديد فيبدوا أنه قد كان ينتظر انتهاء المُهله بفارغ الصبر ولم يتردد في أن يعود للتطفل على حياتي فور انتهاءها.

- يبدو أنك قد عدت إلى حياتي من جديد.

- نعم لقد عدت فأنا أحافظ على عهودي وقد وعدتك بأن أقوم بزيارتك بعد شهر وها أنا أفي بوعدي.

- أرجو أيضًا أن تفي بوعدك الأخر لي بأن تخبرني من أنت، ولماذا ظهرت في حياتي ثم تختفي من حياتي إلى الأبد.

- قد كنت أعتقد أنك ستشتاق إليَّ وستفرح برؤيتي من جديد لكن يبدو أنك متلهف على التخلص مني لقد خيبت أملي.

- أشتاق أليك! يا لك من مغرور! ما الذي دفعك للاعتقاد بأني سأشتاق إليك أو لم تتسبب لي بالعديد من المشاكل حتى أوصلتني إلى حد الجنون طبعًا أنا متلهف للتخلص منك إلى الأبد والآن أخبرني بكل شيء عنك كما وعدتني ولا تنسَ أنني لاأزال أحتفظ بالحبوب التي رجوتني أن لا أستعملها خوفًا من أن تتسبب بسجنك كما ادعيت ولكن إن لم تخبرني بكل شيء الآن فأنا لن أتوانى عن تناول محتويات العلبة كاملة الأن لأسجنك مئات السنين.

- لا داعي لذلك فأنا سأخبرك بكل شيء بعد أن تدفع الثمن.

- ها أنت تعود لاستفزازي من جديد، لقد كنت مخطئًا عندما وافقت على عرضك رغم تيقني بأنك كنت فقط تحاول اكتساب الوقت يا لي من مغفل.

- من ناحية مغفل فأنا لا أختلف معك على ذلك فأنت فعلاً مغفل ولكن فيما يختص بادعائك أنني كنت أكسب الوقت فأنت مخطئ، صحيح أننا اتفقنا أن أخبرك بكل شيء إذا ما التزمت بوعدك لكني لم أقل بتاتًا بأني سأقوم بذلك دون مقابل.

- يا لك من مخادع وغشاش!.

- أرجوك أن تنتقي كلماتك ولا تنعتني بالغشاش والمخادع وإلا فإنني لن أغادر حياتك إلى الأبد وسأحولها إلى جحيم لا يطاق ولن يستطيع طبيب المجانين الخاص بك مساعدتك واعتقد بأنك تعلم بأنني أعني ما أقول.

- حسنا ماذا تريد في مقابل خروجك من حياتي؟

- طلبي بسيط جدًا وهو أن تتعهد بالاستماع إليَّ وتنفيذ كل ما أطلبه منك دون أن تناقشني أو تعترض على ما أطلبه منك لمدة أسبوع واحد فقط.

- ها نحن نبدأ من جديد ما خطتك الآن؟ بماذا ستتحجج بعد انتهاء مهلة الأسبوع؟ فأنا متأكد من أنك ستاتي إليّ بطلبٍ جديد بعد انتهاء مدة الأسبوع تماما كما فعلت بي الآن.

- أعدك بأني لن أطلب منك أي شيء أخر إذا التزمت بما طلبته منك لمدة أسبوع.

- أنا لا أثق بك ولست مستعدًا لتحمل ألاعيبك هذه أكثر من ذلك.

- أنت حرٌ، إذًا عليك أن تجهز نفسك لتحمل عواقب قرارك مرة أخرى فأنت لا تستمع لنصيحتي أبدًا.

- لماذا يجب عليَّ أن أثق بك وقد خدعتني من قبل؟

- لا تقل خدعتني فأنا لم أخدعك لكن كونك مغفل كما قلت أنت، فأنت لم تقم بالاستفسار مني عن التفاصيل كاملة عندما وافقت على عرضي في المرة السابقة وكما تعلم فإن القانون لا يحمي المغفلين.

- فعلاً مغفل فلولا ذلك لما كنت أقف هنا الآن أستمع إلى حديثك المُمل وكلامك غير المهذب بدل أن اخرج للاستمتاع بالجو الجميل في الخارج.

- تستمتع! أنت! لا أعتقد بأنك من الأشخاص الذين يعرفون كيف يستمتعون فأنت غالبًا ما تقضي على كل شيء جميل في حياتك بسبب أفكارك السوداوية.

- فعلاً أنك وقحٌ ولا بُد لي من أن ألقنك درسًا لن تنساه.

وقف وهو يبتسم باستهزاء ثم قال لي: "لكن أرجو أن لا تضرب رأسك بشيء أو تسقط على الأرض ثم تجلس تبكي كالأطفال بعد ذلك".

انقضضت عليه بسرعة لكنه افلت من بين يدي وسقطت على الأرض.

فرح اللعين بذلك وقال لي متشمتًا: "ألم أحذرك من أنك ستقع على الأرض فأنت أخرق وحتى الوقوف على قدميك لم تعد قادرًا أن تقوم به دون أن تسقط على الأرض أنصحك أن تذهب إلى إحدى دور الحضانة وتطلب منهم أن يعلموك كيفية الوقوف على قدميك والمشي دون أن تسقط على الأرض ثم بعد ذلك يمكنك الحديث عن الخروج للخارج والاستمتاع بالجو الجميل".

أصابني الإحباط والغضب في تلك اللحظة ووجدت نفسي مكبلاً وغير قادر على فعل أي شيء تجاه ذلك الطفل الذي انتصر عليّ مرة أخرى على الرغم من صغر حجمه. لا بد لي من أن أراوغه حتى يعتقد أني أثق به ومن ثمَّ أقوم بمباغتته والقضاء عليه.

- حسنًا أنا موافق على أن أطيع تعليماتك لمدة أسبوع، الآن تعال واجلس بقربي حتى نتفق على كل شيء.

- فعلاً أنك مغفل هل تحاول أن تخدعني هل تعتقد أني مغفل مثلك، إياك أن تحاول مراوغتي مرة أخرى وإلا فإنني من سيلقنك درسًا لن تنساه على الرغم من محدودية قواك العقلية.

قال ذلك ثم توجه وأعدَ لنفسه كوبًا من القهوة وجلس في مقعدي ليتناوله وهو يضع رجلا فوق أخرى وكأنه في منزله ويجلس في مقعده. أصابني منظر الطفل الجالس في مقعدي بالغضب المصحوب بالشعور بقلة الحيلة فجلست على الأرض أفكر في حالي هذه والغضب يثور في عروقي. أكمل الطفل احتساء القهوة ثم توجه إلى غرفة نومي وتسلق إلى سريري وسحب الغطاء فوق جسده:

- هذا وقت قيلولتي ولذلك فأنا أرجو أن لا تزعجني وإياك أن تفتح جهاز التلفاز كي لا توقظني من قيلولتي وبعد أن أنهض أريد جوابك النهائي على عرضي ولكن إياك أن تحاول خداعي مرةً أخرى أيها المنافق وغطَّ في النوم على الفور.

وقفت بباب الغرفة غير مصدق ما يحدث واردت الانقضاض عليه وخنقه وهو يغط في النوم ولكن وقبل أن أتمكن من فعل أي شيء فتح عينيه وقال لي إياك أن تقوم بذلك وأشار لي بيده قائلا هيا أذهب الآن وسنتحدث عندما انتهي من قيلولتي وعاد للنوم. لم أعلم ماذا أفعل في تلك اللحظة ولم أعد قادرًا على التفكير فتوجهت لإعداد كوب من

القهوة وجلست في مقعدي ومددت يدي إلى جهاز الريموت كنترول لإدارة التلفاز ولكني تذكرت تحذير ذلك اللعين لي فتراجعت عن ذلك.

أكاد لا أصدق ما يحدث فها هو طفل صغير يحتل منزلي ويُملي عليّ الأوامر وأراه امام عيني يسرح ويمرح في منزلي وأنا لا أقوى على فعل أي شيء. لم أعد قادرًا على البقاء في المنزل فوجود ذلك اللعين يشعرني بالضيق. قمت بمغادرة المكان كالفأر الهارب من القط لكني في حالي هذه ربما يجب أن أقول أن الأمر كان معكوسًا فالفأر هو من احتل المكان وأنا القط الهارب منه.

أخرجت علبة السجائر من جيبي وتناولت سيجارة وجلست على عتبة باب المنزل أحرقها وكنت أحترق من الداخل مع كل نَفَسٍ أسحبه ويدي ترتجف من شدة الغضب. كم هو مؤلم أن يطرد إنسان من بيته! مهما كان متواضعًا ويرى شخصًا آخرًا يحتله دون وجه حق ولا يتمكن من فعل أي شيء. جلست في مكاني كالشحاذ الذي يجلس بباب منزل أحدهم ينتظر أن يعطف عليه ويقدم له كأسًا من الماء أو قطعة خبز يسد بها رمقه. شعور بالهزيمة والإنكسار لم يمر علي يومًا ما. فُتح باب المنزل وأطلَّ ذلك اللعين مبتسمًا:

- أراك تجلس في الخارج ماذا تفعل؟ هل تراقب الجيران أم أنك تحاول الاستمتاع بالجو الجميل؟

- بل قُل أنني أحاول الهروب من شخص لعين أقتحم حياتي وأحتل منزلي ونغَّص علي حياتي في الليل والنهار.

- سامحك الله يا صديقي.

- لا تقل صديقي فأنت أبعد ما تكون عن أن تكون صديقي في الواقع أنت عدوي اللدود الذي لن أدخر جهدًا في القضاء عليه مهما كلفني الأمر.

- أُفٍ لهذه الدرجة تكرهني يا لك من شخصٍ حقود وناكر للجميل.

- أغرب عن وجهي الآن وإلا أقسم بالله بأني سأقوم بفصل رأسك عن جثتك في هذه اللحظة.

- لا أنصحك أن تحاول أن تفعل ذلك فانت اخرق ولا بد من أنك ستسقط متدحرجًا على هذا الدرج وتقسم ظهرك أو تكسر رقبتك.

- استحلفك بالله أن تتركني وشأني.

- لا مانع لدي من أن أتركك وشأنك ولكن كما قلت لك سابقًا أن ذلك لن يكون بدون مقابل ولقد قدمت لك عرضًا سيمكنك من التخلص مني وأنا استطيع أن أرى أنك تتلهف لأن أخرج من حياتك، فلماذا تعمل

على إضاعة الوقت كل ما عليك فعله أن تستمع إلي وتفعل ما أقوله لك لمدة أسبوع يعني سبعة أيام فقط وبعدها لن تراني مجددًا.

- لقد قلت لك أنني لا أثق بك ولن تنطلي على ألاعيبك مرة أخرى.

- أنت حر لكن عنادك لن ينفعك فأنا لن أغادر هذ المكان ما لم تنفذ ما أطلبه منك وما دمت أنا موجود فليس لك مكان تجلس إليه ولا سرير تنام عليه لأنني قد قررت أن استعمل مقعدك وأنام في سريرك ومن الواضح أنك لا تطيق الاقتراب مني فكيف بك تجلس معي في ذات المقعد أو تنام معي في ذات السرير؟ إذا كنت لا تثق بي فهذا شأنك لكن لا خيار آخر أمامك فإما إن تنفذ ما طلبته منك أو فإنك ستمضي الليل والنهار على هذه العتبة.

- وماذا إذا أطعتك ثم غدرت بي كما فعلت بي في المرة الأولى؟

- أنا لم أغدر بك فلقد التزمت بالاتفاق وتركتك لمدة شهر كامل كي تفعل ما يحلو لك وها أنا أعود لأجدك على نفس الحال ولم يتغير شيء في حياتك فأنت لا تزال مدينًا بالمال لسالم ولم تتمكن بعد من إيجاد عمل آخر ولا زلت تستجدي الطعام والحاجيات من العم صالح الطيب الذي يخجل أن يصدك على الرغم من أنه بدأ يضيق ذرعًا بك فقل لي بالله

عليك ماذا فعلت منذ اليوم الذي تركتك به؟ لا داعي للإجابة فأنا سأجيبك...

كل ما فعلته هو الشعور بالإحباط والتجول في الطرقات كالمشرد. كم أشفق عليك وأُرثي لحالك هذه. شخص في مثل سنك يدعي أنه خبر الحياة وأنه شخص متعلم ومتفوق في عمله وتجلس على عتبة المنزل تندب حظك وكأن ما تقوم به سيساعدك على تجاوز محنتك.

- دعني أبشرك إذا بأنك ستبقى على حالك هذه بل ستنحدر إلى القاع ما دمت تجلس هنا ولا تفعل شيء. لا أعلم يا أخي من أين لك بهذه البلادة! التي أنت فيها وكيف تقبل على نفسك أن تترك أمرك للزمن معتقدًا أنه كفيل بحل مشاكلك، الزمن لا يكترث بالمتقاعسين أمثالك بل يمضي ويتركهم وراءه. ها أنا أعرض عليك أن أساعدك ولكنك ترفض ذلك متذرعًا بأنك لا تثق بي لاتضحك على نفسك فأنت ترفض الاستجابة لطلبي لأنك لا تثق بنفسك لأنك تعلم بأنك كسول ومتخاذل، إلى متى ستبقى عالة على العم صالح وصديقك سالم؟ إلى متى ستبقى تحت رحمة مالك الطرطور كما تسميه على الرغم من أنك أنت الطرطور، لابد لك من أن تستفيق من الوهم الذي تحيى به فحياتك هي الوهم وليس أنا كما تحاول أن تقنع نفسك، لقد بدأت تستفزني ببرودك هذا

وأنا فعلاً أفكر في أن اتركك لحالك لتفعل ما يحلو لك لأنك إنسان مُحبط.

لم أعد أطيق سماع كلام ذلك اللعين ولا صوته فنهضت من مكاني وصرخت به:

- كفى يا ابن الكلب من أنت حتى تقوم بالكلام معي بهذه الطريقة ومن أعطاك الحق بأن تتدخل في حياتي أنا سعيد ببلادتي وقلة حيلتي يا أخي مالك ومالي.

ابتسم مستهزئًا بي:

- أهذا كل ما يمكنك القيام به الصراخ وماذا بعد؟ هل ستتقوقع على نفسك وتبدأ بالبكاء من جديد؟ أنظر إلى ما أوصلت نفسك إليه فها أنت تهرب وتجلس على عتبة المنزل لأنك غير قادر على أخراج طفل يصغرك بعشرين عام من منزلك. تهرب إلى الخارج ولا تحاول القيام بأي شيء لاستعادة منزلك الذي تتدعي أنه حق لك. ما دمت خوافًا وجبانًا هكذا وتتصرف كالأطفال فأنت لا حق لك بشيء في هذه الحياة وسينتزع منك كل ما تملكه.

أصابني كلام ذلك اللعين بالانهيار....

- هل أنا فعلًا جبان؟ هل أنا كسول ومتقاعس؟ لم يتركني ذلك اللعين لأكمل تساؤلاتي إذا قطع علي أفكاري قائلاً:

- نعم أنت كل ذلك وأكثر، يا لك من مسكين! حسنًا هل تريدني أن أمنَّ عليك بالسماح لك بالدخول إلى منزلك؟ لك ذلك لقد عطفت عليك وسأسمح لك باستخدام منزلك الذي انتزعته منك، تفضل ادخل.

لم أتمكن من الدخول إلى منزلي ذليلاً بعد أن منَّ علي ذلك المحتل بالسماح لي بالدخول إلى منزلي وإذا لم أكن قادرًا على استعادته منه رغمًا عنه فإذا أنا فعلاً لا استحقه.

- الأن بدأت تفكر كالبالغين وهذه بداية جيدة وإذا أردت استعادة منزلك رغمًا عني كما تمني نفسك، فعليك إذًا أن تخوض المعركة وأول رصاصة في هذه المعركة هي أن تثق بنفسك وبقدرتك على إخراجي من حياتك بعد معركة الأيام السبعة التي فُرضت عليك، هل أنت مستعد لذلك أم أنك لا تملك الجرأة الكافية؟

استفزني كلام ذلك الطفل وقررت أن انتصر عليه... حسنًا أنا أوافق على خوض هذه المعركة وسوف انتصر عليك بإذن الله.

- هذا جيد على الأقل ها أنت بدأت تأخذ زمام أمورك بيدك وهذه بداية حسنة والآن دعنا ندخل إلى الداخل فأنت بحاجة لنيل قسط من الراحة حتى تتمكن من خوض المعركة في الأيام القادمة.

- نعم سأدخل ولكن ليس لأنك طلبت مني ذلك ولكن لأنه قراري أنا وبالمناسبة فأنا سأسمح لك بأن تدخل معي إلى المنزل وتمضي الأيام السبعة معي حتى انتصر عليك وأطردك ذليلا من حياتي.

استيقظت في الصباح للذهاب إلى عملي كالمعتاد وكان ذلك الطفل ينام بقربي في سريري. عندما هممت بالمغادرة فتح عينيه وقبل أن يتفوه بأي كلمة قلت له:

- لا بأس فأنا أسمح لك بالاستمرار بالنوم في سريري. تبسم لي ولف جسده الصغير بالغطاء وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى وعاد للنوم. خرجت من المنزل وأنا أفكر في ذلك الطفل فقد بدأ صباح اليوم وديعًا على غير عادته، لا بد أنه قد بدأ بالإشفاق علي وقرر أن يكف عن مناكفتي. انهيت عملي وتوجهت بعدها مباشرة إلى المنزل فقد كنت قلقًا من أن يقوم ذلك اللعين باحتلال منزلي وما إن دخلت الى الداخل حتى أصبت بالصدمة، منظر المنزل قد كان مروعًا، ملابسي ملقاة على الأرض في كل مكان، أواني المطبخ تناثرت في أرجاء المنزل، الطاولة مقلوبة رأسًا على عقب، السرير والوسائد مجردة من أغطيتها، سلة القمامة

موضوعة على المجلى وقد أفرغ ذلك اللعين محتوياتها على الأرض، جميع محتويات المطبخ من معلبات وأرز وسكر وغيرها منثورة على الأرض، باب الثلاجة مفتوح وجميع محتوياتها مبعثرة في داخلها، لقد قام بتدمير منزلي بالكامل وها هو يجلس غير أبه بما فعل ويبتسم لي. لم استطع تحمل هول المنظر فبدأت بالصراخ عليه كالمجنون:

- ما هذا يا ابن الكلب؟ ماذا فعلت بمنزلي؟ لماذا فعلت ذلك؟ يالك من شخص مؤذي!.

أقسم بالله بأني سأنال منك الآن ولن أتركك حتى أجهز عليك أيها القذر وانقضضت عليه وأنا أكيل له مختلف أنواع الشتائم. قفز من مكانه فارتطم رأسي بالكرسي ولكني لم أهتم بذلك وانقضضت عليه من جديد لكنه قفز من مكانه وأمضيت قرابة الساعة في مطاردته في مختلف أرجاء المكان، لكنه كان يفلت من قبضتي في كل مرة وأنا حينًا أسقط على الأرض، وحينًا يرتطم رأسي بإحدى قطع الأثاث وتارة أرتطم بالجدران أو ترتطم يدي بالحائط وهو فرح بذلك لكني لم أتوقف فقد كنت مُصممًا على النَّيل منه فقد تجاوز جميع الحدود هذه المرة وحول منزلي إلى خرابة بكل معنى الكلمة.

استمريت في ملاحقته إلى أن سقطت على الأرض منهكًا وغير قادر على الحركة. وقف اللعين بقربي مبتسمًا:

- هل انتهيت من جنونك الآن؟

أردت أن أنقض عليه من جديد لكن قواي قد خانتني فقد كنت منهكًا. جلست على الأرض والغيظ يأكلني وأنا غير قادر على النيل منه.

- هل هدأت الآن؟ ماذا استفدت من كل ما فعلت؟ هل غير غضبك علي أي شيء؟ هل عاد النظام إلى المنزل بعد أن ملأت الأرجاء صريخاً كالمجنون؟ هل قامت الشتائم بتنظيف المكان؟

- ألم يكن الأجدى بك أن تستنفد قواك في ترتيب المنزل بدلاً من أن تستهلكها في محاولة القبض علي؟ انظر إلى حالك التي أوصلك الغضب إليها، فها هي الرضوض تملأ أرجاء جسدك والدم يسيل من رأسك واعتقد أنك قد كسرت بعض أصابعك وأنت تضرب الجدران كالأخرق. وماذا ستفعل الآن هل ستجلس هنا دون حراك؟ هل تعتقد أن المنزل سيقوم بترتيب نفسه بنفسه؟

لم أعلم بماذا أرد على ذلك اللعين فقد كان كل ما يسيطر علي في تلك اللحظة هي رغبتي في الانتقام منه وكيفية الإمساك به. اقترب مني ووضع يده على كتفي وقد عاد لإظهار الوداعة:

- هيا واذهب لغسل الدم الذي يسيل من رأسك ثم عُد إلى هنا ودعنا نحاول إعادة تنظيم المكان فأنا لا أستطيع البقاء في

المنزل وهو على هذه الحال.

يتحدث إلي وكأنه لم يفعل شيئًا أو كأني أنا من قام بتدمير المنزل، لقد أثار أعصابي فانفجرت به من جديد:

- لا تستطيع البقاء في المنزل وهو على هذه الحال ألم تقم أنت يا ابن الكلب بفعل ذلك والآن تريدني أن أقوم بإصلاح ما قمت بتدميره؟

أجابني بكل برود:

- لم أطلب منك أن تقوم بذلك لوحدك فلقد قلت لك بأنني سأساعدك في إعادة النظام، يا لك من ناكر للجميل!

لم أستطع تحمله أكثر من ذلك فانقضضت عليه من جديد وأمضينا بعض الوقت في كرٍّ وفرٍّ، أنا أحاول الإمساك به وهو يهرب مني إلى أن يئست من الإمساك به فتوجهت لغسل وجهي الذي امتلأ بالدماء التي سالت من رأسي وقمت بوضع عصابة لمنع تدفق الدم. عندما عدت إلى الخارج كان ذلك اللعين يجلس ويحتسي الشاي وكأنه لم يفعل شيء. نظرت إليه وقبل أن أتفوه بأي كلمة بادرني بالقول:

- اسمع يا خالد، أمامك خياران اثنان فقط، فإما أن نمضي الليل في كرِّ وفرٍّ ونترك المنزل على حاله وأما أن نتعاون على إعادة النظام إلى المكان ولك الخيار.

لم أكترث بما قاله لي وتوجهت لشرب بعض الماء وأنا أنظر بحسرة إلى الفوضى العارمة التي ملأت المكان. لم يعد باستطاعتي ترك الوضع على ما هو عليه أكثر من ذلك. نظر إليّ ذلك اللعين:

- هل قررت ماذا ستفعل؟ هل ستبدأ بترتيب المكان أم ستخوض جولة أخرى من محاولة الإمساك بي وطبعًا ستفشل من جديد كونك أخرق؟

- اخرس ولا تتفوه بأي كلمة وهيا تحرك وقم بإصلاح ما أفسدت.

- لا مانع لدي من ذلك ولكن عليك أن تساعدني ففي نهاية الأمر أنت صاحب المنزل وأنا مجرد ضيف ها هنا، ومن العيب أن تترك ضيفك يقوم بترتيب منزلك أنت واقف كعمود من الحجر لا تفعل شيء.

- أنت لست بضيف، أنت عدوي من اليوم وإلى يوم الدين يا لعين.

- حسنًا إذا فأنا أيضاً ساقف هنا مثلك تمامًا ونترك المنزل على حاله.

لم يكن أمامي من خيار أخر سوى القبول بعرضه:

- هيا قم إذا وابدأ بالعمل وأنت ساكت وإياك أن تتفوه بأي كلمة.

- هل قررت أن تساعدني إذًا؟

- لقد طلبت منك أن تبقى صامتًا وتباشر العمل دون كلام.

- إذًا فقد قررت أن تساعدني؟

- حاضر يا ابن الكلب سأساعدك.

- حسنًا إذًا هيا بنا.

أمضينا معظم الليل في محاولة ترتيب المكان وإعادة النظام إليه وقد كان ذلك اللعين يساعدني بكل همة ونشاط. لا أعلم ما الذي أصابه فقبل قليل قد قام بتدمير المكان وها هو الأن يبذل قصار جهده بإصلاح ما أفسد لا بد أنه مصاب بالانفصام. الانفصام! لقد تذكرت في تلك اللحظة الأيام السوداء التي مرت علي عندما ظهر هذا اللعين في حياتي وكيف أني كنت مقتنعًا باني مصاب بالتشيزوفرانيا وكيف أنني قد اضطررت إلى مراجعة عيادة المجانين. تذكرت أيضًا سمير وما فعله من أجلي. لا بد لي من أن أقوم بزيارته في القريب للاطمئنان عليه وشكره على ما قام به لأجلي فأنا لم أتمكن من تقديم الشكر له عندما رأيته في بيت العزاء حيث أن الوقت لم يكن مناسبًا.

obeikan.com

- ما بالك تقف هنا شارد الذهن، هل ستتركني أنهي العمل لوحدي؟

عدت للعمل مع ذلك اللعين إلى أن تمكنا من إعادة النظام إلى المكان. ياه لقد كان يبدوا كخرابة قبل قليل. الحمد لله لقد عاد كل شيء إلى سابق عهده. جلست في مقعدي متعبًا فاقترب الطفل مني وقال لي:

- اسمع يا خالد لدي ما أقوله لك ولكن أرجوك أن تستمع إليَ ولا تصرخ في وجهي...

لماذا يخشى أن أصرخ في وجهه؟ لا بد أنه قد فعل مصيبة أخرى ويريد الآن إبلاغي عنها. صرخت به:

- ماذا فعلت الآن هل قمت بمصيبة أخرى؟

- ها أنت تصرخ في وجهي من جديد، لا بأس إذًا لن أخبرك بما أردت أن أبلغك به.

- ماذا تريد أن تقول؟

- عدني أولاً ان لا تصرخ في وجهي وأن تستمع إليّ بهدوء.

- حسنًا تفضل يا أستاذ لعين.

obeikan.com

- تخيّل أنك الآن في معركة ولديك مسدس به ستُ رصاصات وظهر أمامك أحد جنود الأعداء فقمت بإطلاق رصاصة نحوه فأرديته قتيلاً فهل ستقوم بإطلاق الرصاصات الخمس المتبقية عليه؟

- طبعًا لا.

- لماذا؟

- لأن الرصاصة الأولى قد أجهزت عليه ومن غير الحكمة أن أضيع الرصاصات المتبقية بإطلاقها على جثة هامدة فمن الأفضل لي أن أحتفظ بها لاستعملها في القضاء على جندي آخر.

- هذا جيد لقد أسأت تقدير قواك العقلية فأنت لست أخرقًا تمامًا كما كنت أعتقد.

استفزني تعليقه وأردت أن أكيل له وابل من الشتائم لكنه لم يمنحنى الفرصة فقد عاد لإكمال كلامه:

- ما قمت به اليوم عندما دخلت المنزل ورأيت الفوضى أشبه ما يكون بإضاعة الرصاصات الخمس.

- ماذا تقصد.

- أقصد أنك استنفدت كل طاقتك في الصراخ والتهديد ومحاولة الإمساك بي على الرغم من أنك تعلم أن كل ذلك لن يغير من الوضع شيئًا بل على العكس قد يزيده سوءً، إن طاقتك هي كالرصاصات يجب عليك استغلالها فقط للقضاء على الهدف وإذا اصابت الرصاصة الأولى الهدف فمن غير الحكمة أن تطلق الرصاصة الثانية عليه. أنا أدعو ذلك بمبدأ الرصاصة الثانية.

- فسّر لي ما تقصد بمبدأ الرصاصة الثانية.

- أعني أن أي شيء تقوم به ولا يساعدك على تحقيق هدفك هو كالرصاصة الثانية التي تطلقها على جثة هامدة دون فائدة ترجى. دعني أذكرك باليوم الذي تعطلت به سيارتك تحت المطر، أتذكر ماذا فعلت؟

- لا أذكر تمامًا.

- حسنًا أنا أذكر لقد قمت بالنزول من السيارة والغضب يملأك وقمت بركلها بقدمك والصراخ عليها.

- نعم أذكر ذلك الآن.

- جيد، هل أفادتك الركلة في إعادة تشغيل السيارة؟

- طبعًا لا.

- إذًا فهي كالرصاصة الثانية. ما أحاول أن أقوله لك أنه عندما تواجه أمرًا غير متوقع، فإن الغضب والصراخ لا ينفعك بل عليك أن تهدأ وأن تقوم بالتفكير في كيفية التعامل مع الأمر وتجد له حلاً. دعني أعطيك مثالاً آخرًا، عندما قام مديرك مالك بإبلاغك بأن الشركة قررت إنهاء خدماتك، انفجرت في وجهه كالمجنون وكِلت له الشتائم، فهل ساعدك ذلك في استعادة وظيفتك؟ طبعًا لا. إذا فما قمت به هو كالرصاصة الثانية التي لا فائدة ترجى منها. انظر إلى المنزل الآن، ما رأيك به؟

- جميل فقد عاد النظام إليه.

- جيد، تخيل أنك لم تستمع إليّ ولم تقم بإعادة ترتيب المنزل واخترت أن تستمر في الصراخ عليّ وفي محاولاتك الفاشلة للإمساك بي هل كان النظام سيعود إلى المكان، سأجيبك أنا طبعًا لا، هل تفهم ما أحاول أن أقوله لك.

- نعم أفهم، فكل شيء نقوم به ولا يؤدي إلى نتيجة هو كالرصاصة الثانية الضائعة التي لا نفع منها.

- جميل لقد بدأت تفهم ما أقوله لك، إذا فاحذر دائمًا من استخدام الرصاصة الثانية فما هي إلا إضاعة للجهد والطاقة ولا تُفد في إصلاح

أي شيء أو حل أية معضلة، وتذكر أن طاقتك كالرصاصات في أرض المعركة فهي ثمينة وإضاعتها في غير مكانها قد يؤدي إلى قتلك، والآن هيا بنا للذهاب للنوم فلا بد لك من نيل قسط من الراحة كي تتمكن من أداء عملك في الصباح.

ذهبنا إلى السرير وفي الوقت الذي غطَّ فيه الطفل في النوم مباشرة أمضيت بعض الوقت في التفكير في مبدأ الرصاصة الثانية الذي أطلعني عليه ذلك الطفل. معه حق في كل ما قاله، ماذا استفدت من الغضب والصراخ عليه سوى استنفاد طاقتي دون أن يؤدي ذلك إلى إعادة النظام إلى المكان، فقط عندما قررت أن استخدم طاقتي في الاتجاه الصحيح عاد النظام إلي المكان لا بد لي من تطبيق هذا المبدأ في حياتي من الآن وصاعدًا.

بمجرد أن دق جرس المنبه في الصباح قفزت من سريري مفزوعًا وركضت لتفقد المنزل خوفًا من يكون ذلك الطفل قد عاث الخراب به من جديد فأنا لا أزال لا أثق به على الرغم من الحديث الذي دار بيننا في الأمس عن مبدأ الرصاصة الثانية. الحمد لله كل شيء في مكانه. كنت لا أزال أعاني من الآلام في مختلف أنحاء جسدي بعد معركة الليلة الماضية وكانت الرضوض تملأ جسدي بأكمله. عدت إلى غرفتي لتبديل ملابسي للاستعداد للتوجه للعمل وعلى الرغم من أن الجو لم يكن باردًا إلا أنني

قررت أن أرتدي الملابس الشتوية كي أعمل على إخفاء آثار المعركة البادية على جسدي قدر المستطاع.

- أرجو أن تكون قد تطمئنت على أن كل شيء على ما يرام؟ يبدو أنك لا تزال لا تثق بي وهذا شيء غير جيد وسيؤثر على علاقتنا معًا.

نظرت نحوه بنوع من الخجل وقلت له:

- للأسف فأنا لا أزال غير قادر على الوثوق بك فما فعلته بي منذ اليوم الذي ظهرت به في حياتي إلى الآن ليس بالشيء القليل وأنا أحتاج لبعض الوقت حتى أتمكن من الوثوق بك.

- لقد أكدت لك غير مرة بأنني هنا لأساعدك، وأنا لا أنوي شرًا بك، ولا بد لك من الوثوق بي كي أتمكن من مساعدتك، على كل حال أنا واثق من أن الأمور ستتغير في الأيام القادمة وأنا لا أكترث كثيرًا بمشاعرك نحوي، أنا هنا لإنجاز مهمة محددة ولن أشغل نفسي بمشاعرك نحوي فأنا لن أسمح لأي شيء أن يلهيني عن إتمام المهمة.

- أرجو أن تكون صادقًا في ما تقوله لي.

- حسنًا اذهب إلى عملك واتركني كي أنهي نومي الآن.

يا له من لعين يحتل منزلي وفوق ذلك يوجه لي الأوامر، طبعًا أنا لا أثق بك وكل ما أريده هو التخلص منك. بعد أن أنهيت عملي توجهت إلى عيادة الدكتور سمير للاطمئنان عليه وشكره على اهتمامه بي. هذه المرة طلبت من سائق السيارة أن يتوقف أمام مدخل العيادة ودخلت إلى البناية بكل ثقة ودون خوف من أن يراني أحد، فما سيحدث سيحدث ففي المرة السابقة بذلت كل جهدي كي لا يراني أحد وفي النهاية تبين أن الطبيب تربطه صلة قرابة بسالم. أرجو أن يكون سالم بخير وقد بدأ يتعافى بعد العملية الجراحية التي أجريت له. لا بد لي من زيارته في المستشفى بعد أن أنتهي من زيارة سمير.

استقبلني الدكتور سمير بحفاوة بالغة. كان الحزن لا يزال باديًا على محياه فصدمة فقدان زوجته لم تكن أمراً سهلاً عليه. سألته عن أوضاعه فأجابني بأنه بخير ولكنه يشعر بفراغ كبير في حياته بعد أن فقد أعز الناس إلى قلبه. حاولت أن أواسيه قدر استطاعتي ولكني لا أعتقد بأن كلماتي قد غيرت من الواقع شيئًا. كان يحدثني عن ذكرياته مع زوجته بتأثر بالغ...

- لم أتخيل يومًا ما أن "جليلة" ستتركني وحدي فهي لم تتخلَ عني يومًا منذ أن تعرفت عليها قبل ما يزيد على أربعين عامًا. لقد التقيتها لأول مرة ونحن على مقاعد الدراسة في جامعة القاهرة ومنذ اللحظة الأولى

شعرت بالانجذاب نحوها فقد كانت في غاية الجمال والرقة وعندما تعرفت عليها أكثر مع مرور الأيام ازددت تعلقًا بها. كلامها متزن ومنمق، تعامل الجميع بمنتهى الأدب، متفوقة في دراستها، متواضعة وتعطف على المساكين، لا تتوانى في تقديم المساعدة لأي شخص يلجأ إليها وعلى الرغم من صغر سنها إلا أنها كانت بمثابة الأخت والأم لي طوال فترة الدراسة. عندما تقدمت لخطبتها لم أكن أملك شيء سوى شهادتي التي لولا مساعدتها لي في الدراسة لما كنت قد حصلت عليها. لقد وقفت إلى جانبي في السراء والضراء حتى وصلتُ إلى ما أنا فيه الآن. لم تكن حياتنا سهلة يا خالد ولولا وجود جليلة إلى جنبي في كل مراحل حياتي لكنت انهرت أمام مصاعب الحياة.

لقد كانت جليلة صلبة جدًا في مواجهة صعاب الحياة على الرغم من رقتها. عندما ولد "كريم" كرست نفسها لرعايته وسهرت على راحته في الليل والنهار. لقد كانت متميزة في عملها لكنها آثرت التخلي عن عملها من أجل رعاية كريم ورعايتي وفجأة انفجر في البكاء صارخًا آهٍ يا جليلة، لماذا ذهبتي وتركتني في هذا العالم وحدي! لماذا لم تأخذيني معكِ! فما نفع الحياة بدونك يا حبيبتي!

لقد فقد كل شيء نكهته من بعدك، لم يعد لفنجان القهوة في الصباح أي طعم، لياليَّ أصبحت خالية وباردة، المنزل الذي كنت دائمًا أجد فيه

سعادتي تحول إلى سجن يخنقني، كل شيء جميل قد فقد بعدك يا جليلة، حتى نباتتك المنزلية التي كنت تعتنين بها حزينة عليك وفقدت رونقها، لم يبقَ لي شيء في الحياة بعدك سوى صورنا معًا وزجاجة عطرك الفرنسي التي غادرتي على عجل وخلفتها ورائك.

انهمرت دمعة من عيني وأنا أستمع لكلام سمير عن رفيقة دربه، جلست هناك مستمعًا له دون أن أتفوه بأي كلمة فأي شيء سأقوله لا معنى له أمام سيل الحنين والشوق المتدفق. تمالك سمير نفسه وكفكف دموعه التي ملأت وجهه وتوجه نحوي قائلاً:

- عذرًا يا خالد، ما كان يجدر بي أن أفقد اتزاني أمامك، اعذرني يا ولدي، والآن أخبرني عن أوضاعك أرجو أن يكون الدواء الذي وصفه لك الأطباء قد ساعدك على الاسترخاء.

- الحمد لله يا دكتور، عفوًا يا سمير كل شيء عاد إلى مجراه وأنا الآن بأحسن حال وعدت لممارسة حياتي كالسابق.

- هذه أخبار جيدة، هل لا زلت ترى ذلك الطفل الذي أخبرتني عنه؟

ترددت قليلاً لكني سرعان ما استدركت الأمر:

- الحمد لله يا دكتور فأنا لم أره منذ يوم خروجي من المستشفى.

لا أعلم لماذا كذبت عليه ربما لأنني لم أُرد أن أزيد العبء عليه بعد أن رأيت مدى الحزن الذي يسيطر عليه بسبب فقدان زوجته أو ربما لأنني خشيت أن يغضب ذلك اللعين مني إذا علم بأني قد ناقشت أمره مع طبيب المجانين مجددًا. أردت أن أطلب من سمير أن يفسر لي ما كان يقصده بالطاقة السلبية لكني اعتقدت بأن الوقت غير مناسب الآن.

- في الحقيقة يا دكتور أنا قد جئت إليك اليوم لأني مَدين لك بالشكر على ما فعلته معي في المرة السابقة وأنا لا أجد الكلمات الكافية لشكرك على كرمك معي ورعايتك لي.

- أرجوك لا تقل ذلك فأنا لم أقم سوى بواجبي نحوك.

- شكرًا لك يا دكتور، ما قمت به تجاوز كل التوقعات وسيبقى دين في رقبتي ما حييت.

- لا داعي لشكري يا خالد، فأنا لم أقم بأي شيء.

أردت أن أودعه وأغادر لزيارة سالم لكنه استوقفني مستفسرًا:

- هل لديك أي سؤال تريدني أن أجيبك عليه؟

هذه لحظة مناسبة لسؤاله عن موضوع الطاقة السلبية.

- في الحقيقة يا دكتور... ثم توقفت عن الكلام فجأة.

- ماذا لديك يا خالد؟

- لا شيء يا دكتور فقط أردت أن أقول أنني أقدر ما قمت به نحوي.

- أرجوك يا خالد لا تتردد في طرح أي سؤال لديك فأنا أشعر بأن لديك ما تقوله لي، أرجوك لا تجعلني أشعر بالذنب لأني فقدت توازني في وجودك.

- لا أبدًا يا دكتور فعلاً أنا فقط أردت أن أشكرك على مساعدتك لي.

- هل أخبرك أحد من قبل بأنك فاشل في الكذب يا خالد؟ هيا قل لي ما لديك ولا تتردد فأنا هنا لمساعدتك.

- حسنًا يا دكتور، في الواقع لدي فضول لمعرفة المزيد عن موضوع الطاقة السلبية الذي ذكرته لي في المرة السابقة لكن يمكنني أن أعود إليك في وقت لاحق فأنا أعتقد أن الوقت قد تأخر الآن ولا بد أنك ترغب في العودة إلى المنزل.

- المنزل لم يعد منزلاً يا خالد بعد جليلة، دعنا نناقش هذا الموضوع الآن على الأقل فإن ذلك سينسيني مأساتي. سأحاول أن أشرح لك الموضوع

ببساطة واختصار، ربما أنت تعلم أن كل شيء في هذا الكون أساسه الطاقة فالأرض والقمر والشمس والنجوم والمجرات ما هي إلا عبارة عن مجالات من الطاقة، وكذلك هو جسم الإنسان. كل شيء مكون من الطاقة. الأشجار والأزهار والمياه وحتى أثاث هذه العيادة كل شيء عبارة عن طاقة. وفي حياتنا اليومية فنحن نقوم بتبادل الطاقة ما بين هذا الكون وأجسادنا، وحتى نحافظ على علاقة إيجابية مع هذا الكون فلا بد لنا من الابقاء على الانسجام والتوازن ما بين الطاقة التي نأخذها من الكون والطاقة التي نطلقها في الكون، كل شيء قائم على الأخذ والعطاء في هذا العالم.

- عذرًا يا دكتور فأنا لا اعتقد بأني أفهم جيدًا ما تحاول شرحه لي، هل يمكنك أن تفسر لي أكثر؟ قلت لنفسي فعلاً أن ذلك الطفل معه حق فأنا الآن أشعر أن قدراتي العقلية ضعيفة.

- بكل سرور يا خالد، دعني اسألك ماذا يحدث للطعام الذي تتناوله؟

- اعتقد أنه يتم هضمه في جسمي.

- هذا صحيح ولكن ما الهدف من عملية الهضم؟

- لست متأكدًا يا دكتور فأنا لا أفهم كثيرًا في ميكانيكية عمل الجسم.

ابتسم لي وقال:

- عند هضم الطعام فإنه يزود أجسادنا بالطاقة اللازمة لعمل أعضائنا الحيوية فحتى تتمكن من رفع يدك مثلاً فأنت تستهلك طاقة، وكذلك عندما تقوم بالمشي أو التنفس وغيرها من الوظائف التي تحدث في جسمك تلقائيًا إن جاز التعبير. عندما تتعرض لأشعة الشمس فإن الجسم يمتص الطاقة من هذه الأشعة، وكذلك عندما تجلس بقرب المدفأة في المنزل فإن جسمك يقوم بامتصاص الطاقة من لهب المدفأة ونفس الشيء يحدث عندما تقوم بوضع الغطاء على جسدك خلال النوم فأنت تشعر بالدفء لأن جسدك يمتص الطاقة الكامنة في الغطاء وغيرها من الأمور الأخرى التي تزود جسمك بالطاقة. أنت تستهلك جزءً من هذه الطاقة في كل شيء تقوم به، كالمشي والوقوف والأكل وحتى في التفكير.

- التفكير أيضًا!

- طبعًا، ألم تلاحظ أنك تشعر بالجوع بعد قيامك بالدراسة أو التفكير في موضوع ما؟

- صحيح يا دكتور.

- لقد خلق الله في أجسادنا القدرة على تبادل الطاقة مع الكون لكن المشكلة تظهر عندما نصبح أنانين، أعني عندما نقوم بامتصاص الطاقة من الكون ثمَّ لا نقوم بإطلاق الطاقة في الكون وهنا يحدث الاختلال في التوازن. عندما لا نمارس الرياضة، أو نصاب بالكسل ونتوقف عن الحركة فإننا نحتفظ بكمية زائدة عن حاجتنا من الطاقة وفي هذه الحالة يحاول الجسم التخلص من هذه الطاقة الزائدة فلا يجد أمامه سوى توجيهها نحو مُخ الإنسان والذي بدوره يحاول التخلص منها فلا يجد أمامه سوى استخدامها في عمله. أعني التفكير فيبدأ بالتفكير في كل شيء سواء أكان مهم أو غير مهم وهذا الأمر يرهق المخ حيث أنه يعمل بأقصى طاقته لفترات طويلة تفوق بكثير القدرة التي خلقها الله فيه وحينما يصاب المخ بالإرهاق فإنه يحاول الاستراحة لكن الجسم يواصل توجيه الطاقة إليه فلا يجد مفرًا من الاستمرار بالعمل إلى أن يصاب بالإرهاق فيبدأ بالتخلص من الطاقة الزائدة عن طريق خلق الأوهام وتخيل أمور غير موجودة فقط لأنه يحتاج للتخلص من الطاقة. وهذا بالضبط ما حصل معك في ذلك اليوم لقد أرهقت عقلك بالتفكير حتى بدأت تتخيل رؤية ذلك الطفل، ولذلك فأنا قد طلبت منك القيام بممارسة الرياضة حيث أنها تساعدك في التخلص من الطاقة الزائدة في جسمك وبالتالي تريح المخ من عبء التخلص منها عن طريق ايجاد قنوات بدلية كالأوهام.

- رائع يا دكتور، شكرًا لك على توضيح الأمر لي، وأعدك بأنني لن أكون بخيلاً بعد اليوم أعني أنني سأقوم بممارسة الرياضة وغيرها من الأمور للتخلص من الطاقة وإطلاقها في الكون.

- جيد يا خالد اعتقد بأنك قد فهمت ما كنت أحاول شرحه لك، لكن أرجوك أن لا ترهق عقلك بالتفكير فيما قلته لك الآن،

وإلا فإنك ستعود إلى ذات المشكلة.

غادرت العيادة بعد أن ودعت الدكتور سمير وأنا أقول لنفسي كم هو رائع هذا الإنسان فهو في عزِّ أزمته لم يبخل علي بوقته وجهده. أردت التوجه لزيارة سالم لكن الوقت قد تأخر ولا بد أنه نائم الآن. شعرت بتأنيب الضمير لتأخري عن زيارته على الرغم من أنه لم يفارقني طوال وجودي في المستشفى. يا لي من ناكر للجميل لا بد لي من القيام بزيارته في الغد مهما كانت الظروف فأنا مدين له بالكثير ولا يجب ان أدع أي شيء يؤخرني عن زيارته.

عدت إلى منزلي في حوالي الساعة الحادية عشر ليلاً لأجد الطفل في انتظاري:

- حمدًا لله على السلامة، أين كنت؟ هل كنت تحاول الهروب مني؟

- لا أبدًا كل ما في الأمر أنني تأخرت عند، أردت أن اقول عند الدكتور سمير لكني تذكرت بأن هذا الأمر يغضبه فصمتُّ.

- تأخرت عند دكتور المجانين لماذا خشيت أن تقولها؟

أردت أن أفسر له سبب عدم إخباره بذلك، لكن شيء في داخلي قال لي "أنت لست مجبر على تبرير تحركاتك لهذا اللعين فما

هو سوى محتل اقتحم منزلك رغمًا عنك" .

- ليس شأنك أين أذهب وكيف أمضي وقتي وإياك أن تسألني مرة أخرى عن سبب تأخري.

- طبعاً لي الحق أن استفسر منك أين كنت، لقد خنت العهد بيننا، ألم نتفق أن تتوقف عن زيارة عيادة المجانين في السابق؟

- لقد اتفقنا أن أتوقف عن ذلك لمدة شهر وقد انقضى هذا الشهر فإياك أن تقول أنني لم التزم بالاتفاق.

- أنا لم أقل أنه بإمكانك العودة إلى زيارته بعد مدة الشهر، هذا لم يكن اتفاقنا.

- لكنك أيضًا لم تقل بأنه لا يمكنني العودة لزيارة الدكتور سمير بد انتهاء مدة الشهر وبالتالي فالذنب ذنبك وكما اتفقنا سابقًا القانون لا يحمي المغفلين أولم تقل لي ذلك عندما طلبت منك أن تخبرني من أين جئت وأنت رفضت أن تقوم بذلك بدون أن تجعلني أدفع الثمن؟

- هكذا إذًا ؟

- نعم، فالذنب ليس ذنبي إذًا كنت أنت مغفلاً.

شعرت بالنشوة في تلك اللحظة فللمرة الأولى أتمكن من الانتصار عليه ووصفه بالمغفل وهو لا يستطيع أن يفعل شيئًا، أو على الأقل هكذا اعتقدتُ. بدَا الغضب واضحًا على وجه الطفل لكنه لم يقم بالرد على ما قلته له. لا بد أنه لم يعلم بماذا يجيب بعد أن انتصرت عليه وأذقته من نفس الكأس التي أذاقني منها مرارًا وتكرارًا لكنه قفز من مكانه فجأة وانتزع نظارتي عن وجهي ثم قام بالدوس عليها حتى تكسرت وتناثرت أجزاؤها على الأرض. انتابتني موجة من الغضب العارم وانقضضت عليه على الفور لكنه كما عادته قفز هاربًا مني فلم يكن أمامي سوى أن استعين بقاموس الشتائم الذي في حوزتي لأوجه له سيل من الشتائم وأصرخ في وجهه كالمجنون. بقي واقفا في مكانه بكل هدوء والابتسامة تعلو وجهه. تركني في جنوني بعض الوقت قبل أن يقول لي:

- ها أنت تبدد رصاصاتك من جديد، يا خسارة الوقت الذي أمضيته في شرح مبدأ الرصاصة الثانية لك، فعلاً أنك مغفل ولم تتعلم مما شرحته لك في الأمس، أنت فعلاً حالة ميؤوس منها ومن الأفضل لي أن لا أضيّع وقتي معك، هل يعيد غضبك عليّ وصراخك في وجهي نظارتك سليمة لك؟ من الأفضل لك أن تتوقف عن تبديد رصاصاتك فلا زال أمامك خمسة أيام على انتهاء المعركة وها أنت تبدد كل رصاصاتك في الهواء، إذا استمريت على هذا المنوال فلا بد أنك ستخسر المعركة وحينها سأكون أنا المنتصر ومن حقي أن أفرض شروطي عليك بما في ذلك البقاء في حياتك الى الأبد.

أعادني كلامه للتفكير في مبدأ الرصاصة الثانية فقررت أن أتوقف عن مهاجمته ففعلاً غضبي عليه لن يغير من الواقع شيئًا:

- لماذا فعلت ذلك يا لعين؟

- ماذا تقصد؟

فقدت أعصابي من جديد وبدأت بالصراخ عليه:

- أقصد لماذا قمت بتحطيم نظارتي يا ابن الكلب، فعلاً أنك شخص بغيض ومؤذي وحقير.

- هـا أنـت تبـدد رصاصـاتك مـن جديـد، مـن الأفضـل لـك أن تـوفر رصاصاتك القليلة المتبقية لاستعمالها في شيء مفيد.

- لا يهم، حتى لو لم يبقَ لدي أي رصاصة فأنا سأنتقم منك وأنتصر عليك بيدي العاريتين.

- تقصد هاتين اليدين المليئتين بالكدمات؟

نظرت إلى يدي فإذا بها فعلاً مليئة بالكدمات ولا أعلم إن كنت قد أصبت بها في معركة الأمس أو الآن.

- اسمع يا مغفل من الأفضل لك أن تتوقف عن الثوران كالثور الهائج كلما حدث شيء لا يعجبك وإلا فمن الأفضل لك أن تجد ساقية لتديرها فأنت كثور الساقية الذي لا يرى إلا تحت أقدامه.

من جديدٍ أثارني ذلك اللعين فعُدت للاستعانة بقاموس الشتائم إلى أن فقدت صوتي من شدة الصراخ. لم يعرني ذلك اللعين أي اهتمام وقام بالتوجه للنوم تاركًا إياي في غيضي. احتجت لبعض الوقت لاستعادة توازني ثم توجهت إلى سريري لأجد بأن الأستاذ لعين لا يزال مستيقظا في سريري. استلقيت بقربه دون أن أنظر نحوه أو أوجّه له أي كلمة. بعد بعض الوقت قام بوضع يده على رأسي وعندما لم أحرك ساكنا أدار جسده الصغير نحوي وقام باحتضاني:

obeikan.com

- أنا آسف لأنني قد حطمت نظارتك.

أردت أن استغل الفرصة للإمساك به وإشباعه لكمًا، لكني لم استطع أن افعل شيئًا فقد بدا ضعيفًا ووديعًا في تلك اللحظة بالإضافة إلى أنه ليس من الرجولة بشيء أن أقوم بالغدر به في لحظة ضعفه فأنا أريد أن أنتصر عليه بعد معركة عادلة وإلا فإنني لن أشعر بنشوة النصر.

- قل لي يا أستاذ لعين، لماذا فعلت ذلك؟ وقبل أن تسألني ماذا أعني فأنا أقصد لماذا قمت بتحطيم نظارتي الوحيدة؟

- ببساطة أنا قمت بذلك لأنك لا تحتاج اليها.

- ما شان الله وكمان طبيب عيون يا دكتور لعين.

- دعنا من المزاح الآن فأنا جاد فيما أقوله لك، أنت لا تحتاج إلى هذه النظارة، فأنت ترى جيدًا بدونها وفي الواقع أنها السبب في كونك أخرقًا.

- فعلاً أنك طفل وقح.

- أنا لست وقحًا يا مغفل، أنا فقط صريح وأحب أن أسمي الأشياء بمسمياتها وعندما أقول أنك أخرق أنا لا أشتمك بل أصفك.

- لو سمحت اخرس ونَم، لأني بدأت أفقد أعصابي ومن الأفضل لك أن لا تستثيرني في هذه اللحظة.

- سامحك الله يا أخرق، حسنًا سأتركك لتنام لكن لي طلب عندك.

- ليس من حقك أن تطلب أي شيء مني.

- أنت حر ولكن أنت الخسران.

أغمضت عيني كي أنام لكني شعرت بنوع من تأنيب الضمير فربما أنه فعلاً بحاجة لشيء ما ولا يجوز أن أتخلى عنه، تذكرت في تلك اللحظة كيف أن الدكتور سمير قام بشرح موضوع الطاقة السلبية لي على الرغم من أنه يمر بظروف صعبة وكما أنه لم يتخلى عني فكذلك يجب علي أن لا أتخلى عن هذا الطفل الذي ربما يكون بحاجتي ففي نهاية الأمر فهو مجرد طفل صغير على الرغم من أنه وقح، استدرت نحوه فإذا به يجلس مبتسمًا وينظر إليّ بكل وداعة:

- لقد كنت متأكدًا من أنك لن تتمكن من النوم قبل أن تسمع ما أريد أن أطلبه منك.

أردت أن أنفجر في وجهه لكنه وضع أصبعه على فمي ليسكتني واستمر في كلامه:

- طلبي بسيط جدًا، كل ما أريده منك هو أن تذهب غدًا بعد العمل لطبيب العيون وتقوم بعمل فحص نظر لتتأكد مما أقول فأنت فعلاً لست بحاجة لهذه النظارة التي تعميك.

- والله يا دكتور لعين الدكتور هو الذي قام بوصف هذه النظارة لي وأنا استعملها منذ سنوات فلا تحاول أن تقنعني الآن بأن لا خلل في نظري وأني لا احتاج لاستعمالها.

- مشكلتك يا أخرق أنك لا تستمع لنصيحة أحد، على أي حال

فالأمر راجع لك وأنت حر والآن اذهب للنوم واتركني كي أنام.

- أمرك يا أستاذ لعين، هيا اخلد للنوم.

منذ أن استيقظت في الصباح وأنا أشعر برغبة بأن أذهب لطبيب العيون كما طلب مني الطفل. ما الذي يجري لي كيف لي أن أصدق هذا اللعين فأنا استعمل هذه النظارة منذ عدة سنوات وهي تساعدني على تحسين مستوى نظري ولم أعاني من أية مشكلة تذكر منذ اليوم الذي بدأت باستعمالها، على أي حال لا بد لي من التوجه إلى محل بيع النظارات فأنا بحاجة لشراء نظارة جديدة بعد أن قام ذلك اللعين بتحطيم نظارتي. توجهت بعد انتهاء العمل إلى المستشفى للاطمئنان على سالم. الضوء في الغرفة كان مطفأً فاعتقدت أنه نائم فقمت بفتح الباب

بهدوء كي لا أزعجه. لا يوجد أحد في الغرفة. الحمد لله لا بد أن صحته قد تحسنت وقام بمغادرة المستشفى. كم أشعر بالحرج الآن، فأنا لم أكن إلى جانبه لمساعدته في إنهاء إجراءات الخروج. توجهت إلى مكتب الاستقبال للسؤال عن موعد خروج سالم من المستشفى:

- سالم؟ المريض في غرفة ١٠١ لا لم يغادر المستشفى.

- حقًا لكنه غير موجود في غرفته، هل تم نقله إلى غرفة أخرى؟

- أعتقد أنه من الأفضل أن تقوم بالتكلم مع الدكتور المشرف على حالته فهو سيشرح لك الأمر.

- ماذا تعنين، هل سالم بخير؟ أين هو الآن؟

- لا أملك أي معلومات يمكنني إخبارك بها وكما أخبرتك فإنه من الأفضل أن تقوم بالتحدث إلى الدكتور وليد.

- أين أجد الدكتور وليد الآن؟

- يمكنك مقابلته في عيادته في قسم العيادات الخارجية في المبنى المقابل.

- شكرًا لكِ.

على الرغم من أن المسافة بين المبنيين لا تتجاوز بضعة أمتار إلا أنني أحسست وأنا أهرول إلى عيادة الدكتور وليد بأنها أبعد من المسافة ما بين الشمس والأرض فقد كانت الهواجس تنهش في عقلي وعشرات الأسئلة تتصارع في داخلي... يا ترى لماذا رفضت موظفة الاستقبال إخباري عن مكان وجود سالم؟ لماذا هو ليس في غرفته؟ هل حصل له مكروه؟ لماذا هذه السرية في التعامل مع حالته؟ إذا كان سالم لا يزال في المستشفى إذًا لماذا لا يوجد أحد من أقاربه هنا؟ لا أحد يُفصِح عن مكان وجوده، يا إلهي لا استطيع تحمل كل هذا.

لا بد أن مكروهًا ما قد حل به، لقد نصحته أن يستمع لوالده ويسافر لإجراء العملية في الخارج، لماذا لم تستمع لنصيحتي يا صديقي، لن أسامح نفسي إذا حصل لك مكروه فأنا قد أخطأت بحقك مرتين، الأولى عندما سمحت لك بإجراء العملية هنا، والثانية عندما تأخرت عن زيارتك في الأمس.

دخلت قسم العيادات الخارجية كالمجنون:

- وليد أين الدكتور وليد، أين أجد الدكتور وليد؟

انتبهت موظفة قسم الاستقبال لحالتي فغادرت كرسيها وهرولت نحوي:

- ماذا تريد من الدكتور وليد؟

لم أكن في وضع يسمح لي بإخبارها بما أريد منه فلا وقت لذلك:

- فقط ارشديني إلى عيادته أرجوكِ أريد أن أرى الدكتور وليد.

- أرجوك اهدأ قليلاً، الدكتور وليد لديه مريض الأن.

دفعتها بيدي ورحت أركض في الممر باحثًا عن عيادته والموظفة المسكينة تركض ورائي بكل ما أوتيت من سرعة:

- أرجوك أن تتوقف، لقد قلت لك أن الدكتور لديه مريض.

لم أكترث بكلامها واستمريت في الركض إلى أن شاهدت اسم الدكتور وليد على أحد الأبواب فاتجهت نحو الباب وحاولت فتحه لكنه كان مقفلاً. يدان قويتان تمسكان بي وتسحباني إلى الوراء، توقف مكانك. واستمر رجل الأمن الضخم في سحبي إلى الوراء بكل قوته وأنا أحاول الإفلات منه إلى أن أعادني ذلك اللئيم إلى منطقة الاستقبال وقام بإرغامي على الجلوس في احد المقاعد.

- أرجوك أن تهدأ قليلاً وسيراك الدكتور وليد بعد دقائق.

حاولت الهرب مجددًا لكن ذلك اللئيم دفعني بقوة وأعادني إلى مقعدي. مرت الدقائق عليّ كأنها سنوات طوال، موظفة الاستقبال عادت بعد قليل:

- تفضل الدكتور وليد بانتظارك.

اندفعت نحو العيادة دون أن يتمكن أحد من إيقافي:

- سالم أين سالم؟ ماذا حدث له، دعوني أراه.

- سالم بخير لا تقلق.

هبطت كلمات الطبيب علي كالمطر الهابط من السماء مطفأة بعض خوفي. تمالكت نفسي:

- أرجوك يا دكتور أين سالم أريد أن أراه.

- لقد قلت لك لا تقلق سالم بخير أرجوك أن تجلس الآن وتمنحني الفرصة لأطلعك على كل شيء.

جلست في المقعد أمام طاولة الطبيب:

- أرجوك أن تخبرني بكل شيء.

obeikan.com

- كمـا تعلـم فـإن العمليـة الجراحيـة التي خضـع لهـا سـالم دقيقـة

جدًا وسيحتاج إلى بعض الوقت لاستعادة عافيته لكنه سيكون بخير.

- إذًا أين هو؟ لماذا ليس في غرفته؟

- سأخبرك بكل شيء لكن في البداية أريد أن أعرف ما علاقتك به فكما تعلم واجبي يحتم علي المحافظة على سرية حالة المريض.

- أنا خالد، صديقه خالد.

- حسناً يا خالد أرجو أن تنتظرني قليلاً وسأعود إليك في الحال

غادر الغرفة تاركًا إياي فريسة القلق. عاد بعد قليل وقال لي:

- حسنًا يا خالد، لقد قمت بالاتصال بوالد سالم وأخذت موافقته

على إطلاعـك على وضـع صـديقك، في الأمـس تعـرض سـالم لنزيـف في الدماغ على إثر العملية.

- نزيف! يا إلهي ماذا حل به؟ أين هو؟ أريد أن أراه.

- ستراه يا خالد لكن أرجوك أن تهدِّئ من روعك قليلاً، لقد قلت لك أنه بخير، فقط اهدأ قليلاً أرجوك.

- حاضر يا دكتور لكن أرجوك أن تدعني أراه.

- لقد قلت لك بأنك ستراه لكن لا بد لك أن تهدأ فأنا لا يمكن أن اسمح لك برؤيته وأنت على هذه الحال.

- حسنًا يا دكتور، تفضل كلِّي آذان مُصغِية.

- كما قلت لك لقد تعرض سالم لنزيف في الأمس على أثر العملية مما اضطرنا للتدخل الجراحي لإيقاف النزيف، والحمد لله قد تكللت جهودنا بالنجاح، وكما تعلم فإن حالته بحاجة لمراقبة دقيقة وبالتالي فقد قمنا بإدخاله إلى قسم العناية لمراقبة حالته عن كثب، والحمد لله كلِّ شيء على ما يرام وقد تخطى مرحلة الخطر. لقد قمنا بإعطائه جرعة من المنوم كي يستريح وكي نضمن عدم عودة النزيف له وإذا ما سار كل شيء حسب المتوقع فسنقوم بإيقاف المنوم عنه اليوم وسيستفيق في الصباح لكني أوكد لك بأنه سيكون بخير.

- ماذا عن نتيجة التحاليل المخبرية، هل هي إيجابية أم سلبية؟

- ستظهر النتيجة خلال يومين ولكن المؤشرات المبدئية سلبية.

- الحمد لله. هل يمكنني رؤيته الآن، أرجوك.

- لا بأس من ذلك لكن أرجو أن لا تزعجه ولا تحاول إيقاظه، يمكنك أن تراه فقط لكن ليس مسموح بالكلام معه.

- لا بأس يا دكتور فقط أريد أن أراه وأعدك بأنني لن أتكلم معه.

رافقتني الممرضة إلى حيث يرقد سالم. جهاز التنفس الاصطناعي على فمه، عشرات الأسلاك التي تصل جسده بأجهزة المراقبة، جهاز قياس الضغط مثبت على ذراعه، جهاز قياس الحرارة مرتبط بأحد أصابعه، أنبوب المضاد الحيوي يخترق ظاهر كفه، أسلاك جهاز تخطيط القلب لا تزال مثبتة بجسده وهو يرقد هناك بلا حراك ويغط في النوم. أردت البقاء معه لفترة أطول لكن الممرضة أصرَّت على مغادرتي المكان. قبل أيام كان يعج بالحياة ويملأ الجو بضحكاته وتعليقاته الساخرة وها هو الآن يرقد في سريره غير مدرك لما يدور حوله.

آه يا سالم كم أشتاق للحديث معك!، كم أنا مشتاقٌ لسماع ضحكتك المدوية من جديد، أرجوك أن تعود للحياة من جديد وأعدك بأني لن أغضب أبدًا من تعليقاتك الساخرة. يا رب أرجوك لا تحرمني من أعز إنسان في حياتي.

لا زال حديثنا الأخير في الأسبوع الماضي يتردد في عقلي. لقد التقينا في منزلي قبل عدة أيام وكان بكامل حيويته والابتسامة لا تفارق وجهه. كان يخبرني عن حالته الصحية بكل أريحية وكأنه يتكلم عن حالة شخص آخر فلقد بدى مطمئنًا وهادئًا:

- أنت تعلم يا خالد بأنك أعز اصدقائي وأنا لا أخفي عنك شيئًا، لقد تمكن الأطباء من تحديد سبب هذا الصداع اللعين، لقد توصل الأطباء إلى وجود ورم في منطقة الرأس ولا بد لي من الخضوع لعملية جراحية لاستئصال الورم.

أصبت بالصدمة لكني حاولت إخفاء مشاعري عنه، فإذا كان هو قد تمكن من مناقشة الأمر معي بكل اتزان فمن غير المقبول أن أصاب أمامه بالهلع.

- أمامي خياران الآن، الأول أن أقوم بإجراء العملية هنا، والثاني أن اسافر لإجرائها في الخارج. أهلي يصرون على الخيار الثاني لكني لا أوافق على ذلك.

- لماذا ياسلم، فكما تعلم فإن الطب متقدم جدًا في الخارج وأنا

أتفق مع أهلك على أنه من الأفضل إجراء العملية في الخارج.

- لقد اتخذت قراري ولن أتراجع عنه، فالعملية صعبة وخطورتها مرتفعة.

- إذًا فمن الأفضل لك أن تقوم بإجرائها في الخارج يا سالم، أرجوك أن تعيد النظر في قرارك.

- لقد قلت لك بأني قد اتخذت قراري فأنا لا أعلم إن كنت سأنجو من هذه العملية أم لا.

- أرجوك يا سالم لا تقل ذلك، فأنت ستخضع للعملية وستنجو منها بإذن الله وتعود لممارسة حياتك كالمعتاد.

- أتمنى ذلك يا خالد، لكن احتمالية أن لا أنجو من العملية أيضا موجودة وإذا كان لا بد من الموت فأنا لا أريد أن أموت غريبًا وبعيدًا عن وطني وأهلي وأصحابي.

- أرجوك يا سالم أن لا تتحدث عن الموت فأنت ستنجو وستعود لممارسة حياتك أنا متأكد من ذلك ولكن أرجوك أن تعاود النظر في مسألة السفر للخارج.

obeikan.com

- هذه مسألة منتهية، فإما أن أعِشْ هنا أو أموت هنا، أريد أن أكون بين أهلي واصدقائي كما أنني أريد أن أمضي ما تبقى لي من أيام بقرب "كارلا".

- كارلا! من كارلا؟ فأنت لم تخبرني عنها من قبل.

- أه يا خالد ماذا أخبرك عن كارلا، إنها أرق إنسانة التقيتها في حياتي، إنها ملاك في صورة إنسان.

بدأ مزاجه يتغير وبدأت الابتسامة تتسلل إلى وجهه وهو يأخذ نفسًا عميقًا كمن يشتم وردة جورية يفوح الأريج منها، أردت أن أبعد فكرة الموت عن مخيلته فطلبت منه أن يخبرني كل شيء عن كارلا.

- إنها أجمل من رأت عيني يا خالد، وجهها يشع كالقمر، الحور في عينيها بحار شاسعة، شعرها ليل أسود ينسدل على رقبتها، رقيقة كنسيم البحر، صوتها كتغريد العندليب، قدها كقد ألبان، طويلة وشامخة كالنخيل، كلامها كالشعر.

- والله يا سالم أنت من يقول الشعر الآن، لم أعرف بأنك رومنسي وشاعر هكذا.

- أه يا خالد مهما قلت لك عنها فلا يمكنني أن أفيها حقها.

- إلى هذه الدرجة؟

- وأكثر يا صديقي، لقد ملكت قلبي وعقلي وغيرت حياتي.

- منذ متى وأنت تعرفها، لماذا لم تخبرني عنها من قبل؟

- أنت السبب في تعرفي عليها يا خالد.

- أنا! كيف؟ هل أعرفها؟

ابتسامة لا تخلو من الخبث وتركني أصارع فضولي لبعض لحظات:

- لقد التقيتها في المستشفى الذي كنت ترقد به عندما أصبت بالإرهاق ومنذ تلك اللحظة لم تفارق مخيلتي، لقد كان والدها يرقد في الغرفة المجاورة لغرفتك.

- يا خبيث، إذًا أنت لم تكن تأتي لزيارتي بل كنت تأتي لتلتقيها.

- أنت دائمًا تسيء الظن بي يا خالد، لكن نعم، لقد كنت انتهز الفرصة لرؤيتها والتعرف اليها. لقد التقيتها عدة مرات بعد ذلك.

- إذًا فهي كانت سبب مواعيدك الغامضة المهمة؟

obeikan.com

- ومن غيرها مهم في الحياة يا خالد وأغلق عينيه وغاص في عالم سحري.

غادرت المستشفى مرغمًا فقد رغبت بالبقاء إلى جانب سالم ربما يحتاجني لكن أوامر الأطباء قد كانت صارمة بمنع الزيارة عنه، فما كان أمامي سوى مغادرة المستشفى ولكني لم أشعر بأي رغبة في التوجه إلى المنزل فأنا لست في وضع يسمح لي بأن اخوض معركة أخرى الآن مع ذلك الطفل فقد آلمني رؤية سالم على هذه الحال وكان القلق عليه مكين في نفسي.

ما إن خرجت من باب المستشفى حتى أحسست بيد تمسك بيدي:

- هيا بنا.

يا إلهي ذلك اللعين قد قام باللحاق بي إلى هنا.

- ماذا تفعل هنا، لماذا قمت باللحاق بي إلى هنا، ألا يكفيني أنك تنغص علي حياتي في المنزل؟

- لقد شعرت بأنك بحاجة لمن يسليك فقررت أن آتِ لأراك لكنك كعادتك ناكر للجميل، حسنًا إذًا أنا ذاهب، فعلاً لا تصنع المعروف في غير أهله مع السلامة.

مشى بضع خطوات بعيدًا عني وهم بقطع الشارع المزدحم، لا أدري ما اصابني فقد شعرت بالخوف عليه وخشيت أن تصدمه إحدى السيارات المسرعة فقمت بمناداته:

- توقف وعد إلى هنا.

توقف ونظر نحوي:

- والله أنك مصاب باالإنفصام، تقوم بطردي ثم تطلب مني العودة، لقد كنت مخطئًا، فعلاً أنت بحاجة لمراجعة عيادة المجانين، ماذا تريد مني الآن؟

- لا شيء نهائي اذهب.

- ماشاء الله يا أخي، ولو لمرة واحدة في حياتك قرر ماذا تريد؟ هل تريدني أن أذهب أو أن أبقى، حيرتني معاك.

- خلص اذهب... لا ابقَ معي.

- هل تريدني أن أبقى أو أن أذهب؟ قرر ماذا تريد؟ لقد بدأت تثير أعصابي.

- افعل ما يحلو لك إن أردت البقاء فابقى أو فاذهب فالأمر راجع لك.

obeikan.com

- هذه هي مشكلتك لا تعرف ماذا تريد ثم تلوم الآخرين، لا بد لك من اتخاذ قرار نهائي الآن.

- حسنًا ابقى، لماذا أتيت؟ ماذا كنت تريد مني؟

- للمرة الألف أقول لك أنا لا أريد شيئًا منك، أنا هنا فقط لمساعدتك، فتوقف عن سؤالي ماذا أريد منك! إذا كنت قد مللت مني فلا بأس سأغادر حياتك إلى الأبد فقط أخبرني ماذا تريد وإياك أن تقول لي أن افعل ما يحلو لي.

- حسناً يمكنك البقاء فانا ارغب بان انتصر عليك أولاً ثم اطردك من حياتي لكن بإرادتي.

- حسنًا سنرى، إن غدًا لناظره قريب، الآن هيا بنا.

- إلى أين؟

- لا تَسَل فقط اتبعني.

ومشى أمامي وأنا أتبعه إلى أن وصلنا إلى أحد محلات البصريات. -عمان للبصريات-:

- هيا بنا.

- إلى أين؟

- هل أنت مغفل أم ماذا؟ دعنا ندخل إلى الداخل كي نقوم بفحص نظرك ربما أنت فعلاً بحاجة إلى نظارة.

- مستحيل! أرجو أن تقوم بإعادة الفحص من جديد فمن غير الممكن أن يكون نظري سليم.

اعاد الفحص وأكد لي أن نظري سليم وانا لا أحتاج الى استعمال النظارة.

- هل أنت متأكد من النتيجة؟ هل الجهاز سليم؟ أرجوك أن تتأكد من أن الجهاز لا يحتاج إلى صيانة.

بدا الانزعاج على فاحص النظر وقال لي بغضب:

- الجهاز سليم وأنت لست بحاجة إلى نظارة.

نظر إلي الطفل وابتسم ابتسامة المنتصر. لقد قلت لك ذلك لكنك لم تصدقني، أنت عنيد ولا تستمع لما أقوله لك إلى متى ستستمر على هذه الحال؟ لا بد لك من أن تتوقف عن الشك في نواياي نحوك وتتوقف عن التصرف كالأطفال. هيا بنا إلى المنزل فأنا أريد أن ارتاح.

- حاضر يا أستاذ لعين.

بمجرد دخولي إلى المنزل توجهت إلى غرفة النوم وقمت بالبحث في درج الخزانة عن ورقة فحص النظر السابقة:

- تفضل يا أستاذ لعين، انظر ماذا تقول نتيجة الفحص.

"قصر نظر بمقدار درجة ونصف" قرأها الطفل بصوتٍ عالٍ ثم قام بتمزيق الورقة وإلقائها على الأرض.

- هذا الفحص مخطئ فتوقف عن تحدي ما أقوله لك، أولم يقل لك الفاحص اليوم بأنك لست بحاجة إلى نظارة؟

- لكن هذا غير ممكن فأنا أستعمل النظارة الطبية منذ ما يزيد عن أربع سنوات.

- وهذه هي مشكلتك ومشكلة معظم البشر.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنكم جميعًا تولدون وأنتم ترون جيدًا لكنكم ما إن تبلغوا حتى تبدؤوا بارتداء النظارات فتفقدوا قدرتكم على رؤية الأمور كما هي.

- ما الذي ترمي اليه؟

- عندما تكونوا أطفالاً ترون الدنيا كما هي وتستمتعون بألوانها المختلفة ولكن ما إن يبلغ الواحد منكم، حتى يرتدي النظارة ويصبح يرى الدنيا بلون النظارة التي يرتديها، فمن يرتدي النظارة السوداء يرى الدنيا من حوله سوداء وكذلك من يرتدي النظارة البنية يرى الدنيا بنية اللون، وهكذا ثم تبدؤون بالشكوى أن الدنيا قد كانت أجمل عندما كنتم أطفال وأن لونها قد تغير عندما كبرتم، الدنيا كما هي سواء أكنتم أطفالًا أم بالغين لكنكم أنتم من يختار أن يراها بلون واحد من خلال ارتداء النظارات.

- لكني لم اختر أن ارتدي النظارة بإرادتي فالطبيب وصفها لي.

- وهل كنت ملزمًا بارتدائها؟ ألم يكن بإمكانك أن لا ترتديها؟ هل تقوم بعمل كل ما يقوله الناس لك؟

- لا أفهم ما تحاول أن تقوله لي.

- أنت دائمًا لا تفهم ما أقوله لك، حسنًا دعني أوضح الأمر لك، هل تعلم لماذا يستمتع الطفل بالحياة بكل ما فيها؟ لا داعي لأن تجيب سأجيبك أنا؛ لأن الطفل لا يستعمل النظارات وبالتالي فإنه يرى الدنيا كما هي؟

- ماذا تعني؟

- أعني أنه يعيش الحياة بملئها دون قيود ودون أن يضعها في قوالب جاهزة، فالطفل يعيش حياته بعفوية ودون أن يفكر قبل أن يقدم على أية خطوة، الطفل بطبيعته مغامر ويقدم على كل شيء دون خوف لكن للأسف عندما يبدأ بالبلوغ يبدأ بالتأثر بآراء من حوله وعندها يبدأ بفقدان القدرة على المغامرة. والديه يبدأن بتحذيره من الابتعاد عن المنزل خوفًا عليه من الضياع فيبدأ عالمه الفسيح بالانحسار، ثم يقومان بتلقينه الدروس... إياك أن تتحدث مع الغرباء، لا تفعل هذا فإنه عيب، لا تركض كي لا تقع، لا تقُل ذلك فالشخص المؤدب لا يقول ذلك، وغيرها من الأمور التي تحدد عالمه وتزرع الخوف في نفسه فيتقوقع على نفسه ويفقد قدرته على التصرف بعفوية، ثم يدخل المدرسة فيبدؤون بتعليمه أمورًا جديدة ولكنهم في الواقع يقومون بإفقاده قدرته على التعلم لأنهم يفقدونه قدرته على الاكتشاف من خلال تلقينه الدروس المسبقة الإعداد، وعندما يكبر يبدأ المجتمع بفرض قيود إضافية عليه: أنت بالغ الآن ولابد لك أن تفكر في كل خطوة تقدم عليها، عليك أن تفكر في المستقبل، عليك أن تدخر بعض المال لغدك (خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود)، عليك أن تخطط لمستقبلك، لا تذهب إلى هنا أو هناك خوفًا على سمعتك، أنت الآن رجل ويجب عليك أن لا تتصرف كالأطفال، أنتِ الآن امرأة بالغة ويجب عليك أن ترتدي هذا ولا

ترتدي ذاك وغيرها من الأمور التي تحدد عالم الشخص أكثر فأكثر كل يوم، ومع الوقت يفقد الشخص استقلاليته وشخصيته المميزة ويبدأ يتخذ شخصية جديدة فرضها عليه المجتمع، ويرى نفسه من خلال عيون من حوله وبالتالي يفقد قدرته على الاستمتاع بالحياة. النظارة التي أحدثك عنها يا خالد هي أراء الآخرين، قيود المجتمع، قوالب العلم المحددة.

- هل تقصد إذًا أنه يجب علينا أن لا ندرس ولا نتعلم؟

- بالطبع لا، لكني أقصد أنه يجب عليك أن لا تأخذ الأمور كمُسلّمات غير قابلة للشك، عليك أن تتعلم ولكن عليك أيضًا أن تستمر بالاستكشاف، والخوض في بحور الحياة ومن ثم تأخذ منها ما تراه أنت مناسبًا لا ما يراه الناس أنه مناسب. إياك يا خالد أن ترتدي النظارات الملونة فإنها تفقدك قدرتك على الإبصار على عكس ما يقولونه لكَ بأنها تحسن قدرتك على الإبصار.

- أخبرني المزيد!

- حسنًا لكن دعني أسألك أولاً من أنت؟

- أنت تعرف من أنا فلماذا تسألني هذا السؤال؟

- فقط أجبني من أنت؟

- أنا خالد.

- أنا لم أسألك ما اسمك، بل سألتك من أنت؟

- أنا مهندس.

- هذا دورك وليس من أنت.

- ماذا تقصد؟

- هل كنت مهندسًا يوم ولدت؟

- لا طبعًا.

- إذًا ماذا كنت؟

- لقد كنت رضيعًا.

- ثم ماذا؟

- ثم طفل.

obeikan.com

- لم أقصد أن أسالك عن مراحل حياتك بل أردت أن أسألك ماذا كنت قبل أن تصبح مهندسًا.

- لقد كنت طالبًا.

- هذا أيضًا دورك في ذلك الوقت، توقف عن التفكير بالألقاب: طالب، مهندس ، موظف ... إلخ. فكر بنفسك، بمن حولك، بي، من نحن؟

- لا أعتقد بأني أفهمك؟

- حسنًا أردت أن أقول لك بأنك لست اللقب الذي تحمله بل انت

إنسان فقط، إنسان فتوقف على التفكير بنفسك من خلال لقبك فهذه نظارة أخرى.

- لكني اجتهدت في الدراسة حتى أصبحت مهندسًا، فما الخطأ في ذلك؟

- ليس هناك خطأ في ذلك لكن الخطأ أن تفكر بنفسك فقط على أنك مهندس فكونك مهندس هو فقط دور تؤديه في هذه الحياة لكن كإنسان فأنت لديك قدرات أخرى كامنة في داخلك فقد خلقك الله بمواهب متعددة تمكنك من لعب عدة أدوار في الحياة. دعني أبسط الأمر لك، لو كان لديك أطفال فسيكون لديك دور أخر في الحياة غير دور المهندس،

فبالإضافة لدورك كمهندس سيكون لديك دور آخر هو دور الأب، وكذلك دور الزوج، ودور رب الأسرة، وعندما تقوم بتعليم أطفالك فأنت تتخذ أيضاً دور المعلم وغيرها من الأدوار. ما أحاول أن أقوله لك بأنه لا يجب عليك أن تتوقف عن استثمار المواهب التي منحك إياها الله. المشكلة تكمن عندما نبدأ بوضع أنفسنا في قالب معين ونصبح ننظر لأنفسنا من خلال الدور الذي نؤديه فقط. عليك دائمًا أن تفكر بنفسك من منطلق أنك إنسان وأن تستمر دومًا في البحث في داخلك عن قدرات تؤهلك للقيام بأدوار أخرى في الحياة. تقييد نفسك باللقب وبالتالي بدور محدد بفقدك القدرة على الاستمتاع بالحياة. القيام بدور واحد فقط يسقطك في فخ الروتين والذي بدوره يصيبك بالملل من الحياة. دعني أعطيك مثالاً.. هل تعلم من هو أديسون؟

شعرت بالفرح فأنا أعرف الجواب على ذلك:

- إنه مخترع اللمبة.

- صحيح، وهل تعلم إنه قد كان فاشلاً في المدرسة؟

- نعم فأنا قد اطّلعت على سيرة حياته.

- جيد، ماذا لو كان أديسون حدد نفسه في الدور الذي يؤديه؟ أعني دور الطالب الفاشل، لا بد أننا كنا الآن نجلس في العتمة دون ضوء اللمبة،

لكنه والحمد لله لم يقف عند دور واحد فقط بل بحث عن دور آخر يؤديه. وكثير غيره لم يحدِّدوا أنفسهم في دور واحد في الحياة فأصبحوا من مشاهير العالم. هل تذكر اليوم الأول الذي قمت به بزيارة عيادة المجانين؟

- نعم أذكر، لماذا؟

- هل تعلم لماذا رفض سمير أن يدعك تناديه بلقب دكتور؟

- لأنه إنسان متواضع.

- بل لأن اللقب يحدده بدور معين؛ دور الطبيب، ولو انه قام بحصر نفسه بدوره كطبيب لما قام بمساعدتك ونقلك إلى المستشفى وبقي يتابعك إلى أن تعافيت من الإرهاق. لقد تعامل معك سمير كإنسان وليس كمريض وتعامل معك من منطلق أنه إنسان. إن سبب تعاسة البشر في أيامنا هذه هي النظارات التي ينظرون للعالم من خلالها والألقاب التي يقيدون أنفسهم بها ويقتصرون دورهم في الحياة على الدور الذي يحدده لهم اللقب.

- رائع وماذا أيضًا؟

- سأخبرك بالباقي في الغد فأنا الآن متعب وأرغب بالنوم.

obeikan.com

ما إن غَطَطتُ في النوم حتى أيقظني ذلك الطفل:

- هيا قُم.

- ماذا هل حلَّ الصباح؟ لماذا لم يدق جرس المنبه؟

- لا الساعة لا تزال الحادية عشرة والنصف مساءً.

- لماذا قمت بإيقاظي إذًا؟

- لا بد لنا من الذهاب إلى السوق، فأنا بحاجة لشراء شيء ما.

- الذهاب إلى السوق في هذا الوقت! هل أصبت بالجنون أم ماذا؟ المحلات مغلقة الآن كما أنني بحاجة إلى النوم كي أتمكن

من الالتحاق بعملي في الصباح، هيا عُد للنوم وسنذهب للسوق غدًا.

- لا، لا بُد لنا من الذهاب الأن فالأمر مهم.

- لقد قلت لك عُد للنوم، وعُدتُ للنوم.

إلا أنه قام بنزع الغطاء عن جسدي ودفعني من السرير: هيا قم كفاك كسلاً.

obeikan.com

- ما هذا الشيء المهم الذي لا يمكنك الانتظار إلى الغد لشرائه؟

- لا وقت لدينا الأن فلا بد لنا من الوصول إلى المتجر قبل ان يغلق ابوابه، هيا بنا وسأخبرك كل شيء في الطريق.

- يا لك من شخص مزعج.

قمت بتبديل ملابسي والنعاس يغالب عيني ثم غادرنا المنزل.

- إلى أين تريد الذهاب الآن؟

- فقط اتبعني.

بدأ يركض أمامي، أنا ألحق به على غير هديٍ إلى أن وصلنا إلى الدَّرج الذي يقود إلى وسط البلد. وقفت على بداية الدرج وصرخت في وجهه توقف، إلى أين تذهب؟ لا بد أنك تمازحني! من غير المعقول أنك تريد الذهاب إلى وسط البلد في هذه الساعة لقد قلت لك أن المحلات مغلقة. لم يكترث بكلامي وواصل هبوط الدرج وهو يقفز بفرح ولم يكن أمامي أي خيار سوى اللحاق به. توقف... صرخت به وأنا ألهث من شدة التعب. استمر بالركض وأنا أركض ورائه وبالكاد كنت قادرًا على التقاط أنفاسي. لم يتوقف ذلك اللعين إلا حين بلغنا أسفل الدرج. نظر إليّ بفرح وأمسك بيدي وبدأ يجرني خلفه في طرقات السوق إلى أن وصلنا إلى

obeikan.com

كشك صغير يبيع ألعاب الأطفال. لم أصدق عيني، هل قام بسحبي من سريري في هذا الوقت من أجل شراء لعبة!

- لا بد أنك قد أصبت بالجنون، هل قمت بجري خلفك في منتصف الليل من أجل شراء لعبة.

- نعم.

- نعامة ترفسك يا ابن الكلب.

ابتسم لي وقال:

- وفِّر رصاصاتك فنحن قد وصلنا إلى هنا الآن وغضبك لن يغير من الأمر شيئًا. آشار بيده إلى لعبة القطار.

- هيا اشترِ لي هذا القطار.

- نظرت إليه وأنا في غاية الغضب.

- هيا اشترِ لي هذا القطار ما بالك تقف هنا كالأبله، وتناول اللعبة من مكانها.

obeikan.com

لم يكن أمامي أي خيار سوى إخراج ثمن اللعبة من جيبي ودفعه لصاحب الكشك. كان الطفل يحتضن اللعبة وهو بغاية السعادة وما إن انتهيت من دفع قيمتها حتى راح يركض أمامي فرحًا. لم أعلم هل كان فرحًا باللعبة أم فرحًا بانتصاره عليّ. وصلنا المنزل في حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فتوجهت إلى غرفة النوم مباشرة.

- أين تذهب؟

- أنا ذاهب للنوم فالوقت قد تأخر.

- لا، لا يمكنك النوم الآن.

وقام بتمزيق العلبة وإخراج قطع اللعبة من داخلها.

- هيا تعال وساعدني في تركيبها.

- اذهب للنوم الآن وسنعمل على تركيبها في الصباح.

- لا، أريد أن ألعب بها الآن.

أصبت بنوبة غضب شديدة وبدأت بالصراخ في وجهه.

- وفِّر رصاصاتك الآن وهيا تعال وساعدني فى تركيب سكة القطار.

obeikan.com

لم يكن أمامي من خيار أمام إصرار هذا اللعين سوى الرضوخ لطلبه. بدأنا بتركيب اللعبة وهو كلما وضع قطعة في مكانها ينظر إليّ بعينين تفيضان بالفرح. قمنا بتشغيل اللعبة وما إن بدأ القطار بالسير على السكة حتى بدأ الطفل بالتصفيق والرقص كالمجنون. على الرغم من غضبي إلا أن منظره وهو فَرِح أدخل السرور إلى قلبي ورسم بسمة على شفاهي. أمضينا بعض من الوقت نلعب معاً وقد تبدل غضبي إلى سعادة ولا أخفيكم أنني قد استمتعت باللعب بقدر ما استمتع الطفل بذلك، إذ لم أقل أن سعادتي قد فاقت سعادته. ذهبنا للنوم بعد أن انتهينا من اللعب وما ان دخلنا إلى السرير حتى قام الطفل بتقبيلي قائلاً: شكرًا لك.

- عفوًا، ولكن ألم يكن بإمكانك الانتظار حتى الغد لشراء هذه اللعبة؟

- أنا أسف، ولكن نحن الأطفال عندما نرغب بشيء لا يمكننا الانتظار فنحن لا نفكر بالأمور مثلكم أنتم البالغين فنحن نتصرف بعفوية، وعندما تخطر لنا فكرة ما نباشر بتنفيذها دون أن نفكر أن كان الوقت مناسبًا أم لا، كما أننا لا نفكر في معوقات تنفيذ الفكرة بل نباشر بتنفيذها ونشعر بالسعادة سواء أنجحنا في تنفيذها أم لا فنحن نستمتع بالتجربة في حد ذاتها لا في النتائج، وهذا ما يميزنا عنكم فأنتم تهتمون بالنتائج والتفاصيل وتقومون بإشباع أي فكرة تخطر لكم بحثًا وتمحيصًا قبل أن تباشروا بتنفيذها، وفي كثير من الأحيان تتخلون عن

الفكرة حتى قبل أن تجربوا تنفيذها، أنتم تحكمون على النتيجة ثم تبدؤون بالعمل أما نحن فنبدأ بالعمل أولاً ثم ننتظر لنرى النتيجة، ولذلك فإن قدرتنا على التعلم أكبر من قدرتكم بكثير لأننا نجرب كل شيء دون خوف أو قلق.

- ماذا تحاول أن تقول لي؟

- ما أحاول أن أقوله لك هو أنه إذا ما أردت الاستمتاع بالحياة فعليك أن تتصرف كالأطفال وأن لا تحرم نفسك من متعة التجربة والاستكشاف، مشكلتكم أنتم البالغين أنكم تمضون معظم وقتكم بالقلق على النتائج والخوف من الفشل وهو الأمر الذي يحد من قدرتكم على القيام بما ترغبون به وما تستمتعون به. الخوف من الفشل دائمًا ما يقعدكم عن التجربة وبالتالي فإن حياتكم تصبح مملّة لأنكم تفضلون القيام بالأعمال الروتينية التي تعرفون نتيجتها وبالتالي يصبح عالمكم صغير ومحدود وممل أما عالمنا فإنه فسيح ومفتوح على كل الاحتمالات، عالمنا نحن الأطفال لا حدود له وكل يوم به شيء جديد.

أمضيت بعض من الوقت متفكرًا فيما قاله لي الطفل، فعلاً أن ما قاله صحيح، لقد بدأت أعجب بهذا المحتل، وهذا أمر خطير...

وضع سالم الصحي يتدهور، نبضات قلبه بدأت بالتباطؤ، ضغط دمه انخفض إلى مستوى خطير، جسده بأكمله يرتجف. هرع الدكتور وليد برفقة مجموعة من الممرضين والأطباء إلى غرفة العناية الحثيثة. محاولات بائسة لإعادة الحياة للمريض السابح في عالم أخر بعد أن دخل في غيبوبة مطبقة. أحد الأطباء يقوم بالضغط على موقع القلب بكلتا يديه ثم يقوم برفعهما ليعيد المحاولة من جديد، وآخر يتابع بقلق جهاز المراقبة ويصرخ بين الحين والآخر "لقد فقد النبض" يقوم الدكتور وليد بحقن وريد سالم بدواء ما على أمل إعادة النبض له. يصرخ الممرض المراقب "لقد عاد النبض لكنه ضعيف... فقد النبض من جديد" طبيب يهرول نحو الغرفة وهو يسحب خلفه جهاز غريب ويضعه إلى جانب سرير سالم، أحد الأطباء يُدخل أنبوبًا عنوة إلى رئة سالم عبر شق أحدثه مبضعه بجانب الصدر. سائل أبيض يتدفق عبر الأنبوب إلى الخارج. قطعتي معدن تشبه كل منهما مكواة الملابس مرتبطة بأسلاك إلى الجهاز الغريب. يضع الطبيب سائلاً هلاميًا على كلتا القطعتين ويقوم بفركهما ببعضهما. الدكتور وليد يقوم بالعد... واحد، اثنان، ثلاثة. يبتعد الجميع بضعة خطوات عن السرير. يضع الطبيب الآخر القطعتين المعدنتين على صدر سالم العاري. يقفز جسد سالم الهزيل ويرتفع في الهواء قليلاً ثم يعود يهوى من جديد على السرير. الدكتور وليد يقوم بالعد مرة أخرى... واحد، اثنان، ثلاثة. يبتعد الجميع مجددًا. جسد سالم يقفز في الهواء ثم

يعود ليهوى على السرير. تكرَّر المحاولة عدة مرات والقلق بادٍ على الجميع. جهاز مراقبة نبضات القلب يصدر صوتًا مستمرًا مختلفًا عن الصوت المتقطع الذي كان يصدره في السابق. الممرض الذي تعلقت كلتا عيناه بالجهاز يصرخ: لقد فقدناه.

يحاول الدكتور وليد إعادة إنعاش قلب سالم بالضغط عليه بكلتا يديه. يحاول عدة مرات بكل قوته حتى يكاد يحطم أضلع الصدر. يتوقف الجميع عن محاولاتهم البائسة. يسحب أحد الممرضين غطاء السرير الأبيض مغطيًا جسد سالم بأكمله ثم يسحبه إلى ما فوق وجهه. يغادر الجميع المكان بهدوء والحزن يسدل ستارًا على وجوههم. خارج الغرفة يقف والد سالم وشقيقه وأنا إلى جانبهم. يتوقف الدكتور وليد للحديث إلى والد سالم، يتفوه بعد عناء بكلمتين اثنتين تهبطان علينا جميعًا كالصاعقة.

- البقاء لله....

والد سالم لا يتمالك نفسه ويهوي إلى الأرض. نساعده على الوقوف ونقوم بوضعه في أحد المقاعد. شقيق سالم يجهش بالبكاء. أطلقت صرخة مدوية لا بد أنها اخترقت جميع جدران المستشفى وجابت فوق تلال عمان السبعة... سااااااااااالم.

استيقظت من نومي مذعورًا والعرق يتصبب من جسدي. استفاق الطفل بقربي

- ماذا بك؟

- كابوس مزعج. رحمتك يا رب.

- ما هذا الكابوس الذي أيقظك مذعورًا بهذا الشكل.

- سالم، فقدنا سالم. سالم فارق الحياة.

- الحمد لله.

- ما بالك، أقول لك فقدنا سالم وتقول الحمد لله.

- اولاً الحمد لله على أي شيء. الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، وثانيًا أن الموت في المنام خير وحياة في الواقع، لا تقلق واشكر الله وعد للنوم.

- الحمد لله.

حاولت العودة للنوم لكني لم أجد إليه سبيلاً. خرجت من غرفة النوم وقمت بالجلوس في مقعدي وأنا أدعو الله أن يكون سالم بخير وأن يكون

obeikan.com

ما قاله لي الطفل صحيح. ما إن أشار عقرب الساعة إلى السادسة حتى قمت بتبديل ملابسي وخرجت مسرعًا متوجهًا إلى المستشفى. رجل الأمن الواقف على بوابة المستشفى منعني من الدخول فمواعيد الزيارة لا تبدأ قبل الساعة التاسعة. حاولت إقناعه بشتى الوسائل بالسماح لي بالدخول لكنه أصر على موقفه.

- أرجوك أن تدعني أدخل فصديقي في خطر ولا بد لي من رؤيته. أنا سوف أغادر البلد بعد ساعات ولا بد لي من رؤية صديقي قبل سفري، أرجوك.

- التعليمات واضحة... لا زيارة قبل الساعة التاسعة.

- لكن هذه حالة استثنائية، وأنا فعلاً بحاجة للاطمئنان على صديقي الآن.

لم تغير كل محاولاتي من موقف رجل الأمن البغيض ولم يكن أمامي سوى محاولة رشوته ببعض السجائر. ناولته سيجارة من علبة السجائر فتناولها ووضعها في فمه. قمت بإخراج ولاعة السجائر وأشعلت السيجارة التي في فمه وتناولت سيجارة أخرى ووضعتها في فمي وأشعلتها. تبادلت معه بعض الأحاديث عن وضع البلد وأوضاعه المالية وعندما وجدت أنه يتجاوب معي قمت بإعطائه علبة السجائر بعد أن دسست في

داخلها خمسًا من الدنانير. لا بد أنه لاحظ ما فعلت فتناول العلبة من يدي وقام بوضعها في جيبه.

- حسناً سأسمح لك بالدخول لكن أرجو أن لا تطيل البقاء في الداخل فموعد حضور مدير الأمن يقترب وإذا أتى وعلم بأني سمحت لك بالدخول في غير المواعيد المحددة سأقع في مشكلة.

- لا تقلق، بضع دقائق ثم سأغادر. أعدك بذلك.

ما أن سمح لي ذلك البغيض بالدخول حتى هرولت مسرعًا إلى غرفة العناية. أوقفتني الممرضة الجالسة خلف كاونتر الاستقبال قبل أن أتمكن من دخول الغرفة. بعد عدة محاولات سمحت لي بالدخول شريطة أن لا أطيل البقاء في الداخل.

سالم ينام على سريره بهدوء ويتنفس بشكل طبيعي بعد أن قام الأطباء بنزع جهاز التنفس الاصطناعي عن فمه. الحمد لله، لا بد أن حاله تتحسن. وضعت يدي على جبينه متحسسًا درجة حرارته التي كانت قد عادت إلى مستواها الطبيعي. فتح عينيه ونظر نحوي وارتسمت على شفاهه ابتسامة خجولة ثم عاد ليغط في النوم. شعرت بالارتياح والسعادة لرؤية سالم يستعيد عافيته شيئًا فشيئًا. غادرت الغرفة وتوجهت نحو الممرضة التي كانت لا تزال تجلس في مكانها.

- شكرًا لك لسماحك لي برؤيته.

- عفوًا، والآن يجب عليك أن تغادر قبل أن يراك أحد الأطباء.

- لا بأس، ولكن هل لي بسؤال أخير من فضلك.

- تفضل..

- هل ظهرت نتائج الفحوصات المخبرية.

- نعم..

- هل لي بمعرفة النتيجة، أرجوكِ.

ترددت قليلاً ثم قالت:

- حسنًا لكن أرجوك أن لا تخبر أحدًا بأني قمت باطلاعك على النتيجة.

- أعدكِ بذلك.

- الحمد لله النتائج سلبية والورم الذي تم استئصاله حميد ولا داعي للقلق وما هي إلا أيامًا وسيغادر صديقك المستشفى

ويتمكن من ممارسة حياته كالسابق.

obeikan.com

- الحمد لله، شكرًا لكِ.

وبدون شعور مني قمت باحتضانها من شدة الفرح. وقفت في مكانها غير مصدقة ما قمت به ثم ابتسمت لي وقالت:

- الأن أرجوك أن تغادر المكان.

ماذا يحدث معي؟ كيف تجرأت على القيام بما قمت به؟ لقد بدأت أتصرف بعفوية كالأطفال، لا بد أنه تأثير ذلك اللعين فهو منذ أيام يقوم بحشو أفكاره عن سبب تعاسة البشر في عقلي ويحثني على التصرف كالأطفال وها هو ينجح في مسعاه. الممرضة المسكينة لا بد أنها لا زالت مشدوهة من فعلتي الرعناء. غادرت المستشفى محلقًا من شدة الفرح واستمريت بشكر الله إلى أن وصلت إلى عملي.

كنت أول الواصلين إلى مقر الشركة، قمت بإدارة جهاز الحاسوب وبدأت بمراجعة سير المشروع، أصبت بالذعر والهلع، هناك تأخير في سير العمل بالمقارنة بالخطة الموضوعة وإذا استمرينا على ذات المنوال فلا بد أننا سنتأخر عن موعد تسليم المشروع على الأقل لمدة شهر كامل، صعقت لمعرفتي ذلك فكل يوم تأخير سيكلفنا عشرات الآلاف من الدنانير غرامة تأخير..لم أعد قادرًا على التركيز وأصبت بالإحباط.

ماذا سأقول لمالك اللعين؟ لا بد أنه سيصب جام غضبه عليّ. يا إلهي كيف حدث ذلك! تذكرت في تلك اللحظة الحديث الذي دار بيني وبين الطفل عن مبدأ الرصاصة الثانية التي لا فائدة منها. هلعي وذعري ما هو إلا رصاصة ثانية ولن تغيرا من الواقع شيئًا ولا بُد لي من أن أهدأ وأبحث عن حلول لهذه الكارثة. قمت بلملمت نفسي التي كانت قد تناثرت في أرجاء المكتب من شدة الهلع وعدت لمراجعة سير العمل في المشروع من جديد. بدأت بالبحث عن مكمن الخلل محاولاً التعرف على نقاط التقصير، لم أجد أي تقصير من قبل فريق العمل فهم يقومون بعملهم على أتم وجه، هناك خطأ في حساب الوقت اللازم لإنهاء المهام فمن قام بوضع الخطة لم يقدر الوقت اللازم بشكل دقيق، جميع الأوقات المقدرة غير واقعية إذا ما أخذنا مقدار الجهد اللازم لإنجازها بعين الاعتبار، لا بد لنا من إعادة حساب الوقت اللازم لكل مهمة. لكنا قد قمنا بتوقيع عقد المشروع ولا يمكننا الأن تعديل موعد التسليم.

يا إلهي! ماذا سأفعل الآن. رصاصة ثانية لا فائدة منها، لابُد لي من البحث عن حلول، لابُد لنا من الطلب من فريق العمل أن يعمل ساعات إضافية لكنهم يعملون على مدار الساعة، لابُد لي من البحث عن حل آخر. ربما يجب أن نقوم بزيادة عدد العمالة. لكنا لا نمتلك المعدات الكافية وحتى إذا قمنا بزيادة عدد العمالة فلن يمكنهم العمل بدون معدات. هل نقوم بشراء المزيد من المعدات؟ لاهذا مكلف ومن غير

المعقول أن نقوم بشراء معدات إضافية في وقت الكساد هذا فتكلفتها مرتفعة كما أنها ستتكدس في مستودعات الشركة بعد انتهاء العمل، ماذا نفعل؟ لا بد لنا من استئجار المعدات من مكان ما ولفترة محددة، لكن من أين؟ بدأت بتقليب الأفكار في عقلي، دخل مالك من باب الشركة وبعد أن قام بإلقاء تحية الصباح علي توجه إلى مكتبه، أردت اللحاق به لإخباره عن الكارثة التي نواجها، لا.. من الأفضل لي أولاً أن أجد حلاً معقولاً ثم أقوم باطلاعه على الوضع الخطير مع تقديم الحلول المقترحة فهذا أفضل.

أمضيت عدة ساعات في التفكير بالحلول الممكنة إلى أن خطرت لي فكرة بدت مناسبة، جميع الشركات المماثلة تعاني الآن من الكساد ولا بد أن لديها العديد من المعدات المتكدسة في مستودعاتها ولا بد أن إحداها ستوافق على تأجيرنا المعدات مقابل مبلغ مالي مناسب، لا أعتقد بأن أي من الشركات ستوافق على تأجيرنا المعدات فهم منافسون لنا ولا بد أنهم سيفرحون إذا ما تأخرنا في تسليم المشروع لا ضرر من المحاولة. قمت بالبحث في دفتر التلفونات الخاص بي عن أسماء الأشخاص الذين أعرفهم والذين يعملون في الشركات التي تعمل في نفس مجال عملنا.

طلبت مقابلة مالك وقمت باطلاعه على مستجدات الأمور، أصيب بنوبة من الغضب.

- كيف حدث هذا؟ أين كنت يا أستاذ خالد؟ هل كنت نائمًا غير مدرك لما يحدث؟

- أرجو أن تهدأ يا أستاذ مالك.

- أهدأ! لقد تسببت في كارثة للشركة وتطلب مني أن أهدأ.

أردت أن أنفجر في وجهه مدافعًا عن نفسي، لا فائدة من ذلك الآن فهذا سيأخذنا بعيدًا عن الموضوع الأساسي. أرجوك يا أستاذ مالك أن تهدأ قليلاً لإعطائي المجال كي أشرح لك ما حدث.

- ما حدث أنك كنت نائمًا. لقد كنت مخطئًا عندما وثقت بك.

- يا أستاذ مالك غضبك هذا لن يحل المشكلة، لدي حل مقترح للخروج من الأزمة لكن ما لم تهدأ الآن فلا يمكنني الاستمرار بالحديث معك.

- تفضل يا وجه المصائب.

تمالكت أعصابي بصعوبة وبدأت بشرح ما حدث له وهو يستمع إلي والغضب يسيطر عليه.

- لا بد لنا من زيادة عدد العمالة واستئجار بعض المعدات إذا ما أردنا أن ننتهي من المشروع بموعده.

حاول أن يقاطعني لكني قمت بإسكاته وواصلت حديثي.

-لقد قمت بالإتصال بالشركات المنافسة ووافقت إحداها بعد جهد على تأجير المعدات اللازمة لمدة شهرين.

حاول مقاطعتي من جديد فصرخت في وجهه:

- دعني أكمل حديثي أولاً ثم أفعل ما يحلو لك... لقد قمت بحساب تكلفة استئجار المعدات والتعاقد مع بعض العمالة المؤقتة التي سنحتاجها. قمت بتقديم ورقة حساب التكاليف التي كنت قد قمت بإعدادها وكنت قد ضمنتها مقارنة ما بين التكاليف التي سنتحملها في مقابل الغرامات التي سنتكلفها في حال تأخرنا عن تسليم المشروع في موعده.

هدأ مالك قليلاً وقام برفع النظارة عن وجهه إلى أن استقرت على أعلى رأسه وبدأ بدراسة الورقة.

- لكن هذه تكلفة مرتفعة يا خالد.

- أعلم ذلك لكنها أقل بكثير من الخسائر التي ستنتج عن التأخر في تسليم المشروع.

- لا بد لي من مناقشة الموضوع مع مجلس الإدارة.

- لا بأس لكن لا بد لنا من الانتهاء من ذلك بأسرع وقت ممكن

فكل يوم تأخير سيزيد من المشكلة.

- حسناً يا خالد، سأطلعك على نتيجة مناقشاتي مع المجلس في الغد.

هممت بالخروج من مكتب مالك اللعين لكنه استوقفني:

- خالد... شكرًا لك واعذرني على الكلام الذي قلته لك.

نظرت نحوه:

- لا بأس يا أستاذ مالك، أنا أقدر وضعك.

في اليوم التالي أبلغني مالك بأن مجلس الإدارة قد وافق على المقترح المقدم لهم وطلب مني أن أبدأ بالعمل على استئجار المعدات والتعاقد مع شركة التوظيف على الإعداد اللازمة من العمالة لتشغيل هذه المعدات.

توجهت بعد العمل للاطمئنان على سالم في المستشفى والحمد لله كانت حالته تتحسن بسرعة وقد استعاد قدرته على الأكل والمشي وقد

obeikan.com

بدا سعيدًا بهذا التحسن الذي طرأ على صحته، عرّجت في طريق عودتي إلى المنزل لزيارة عماد وهو أحد اصدقاء أيام الدراسة المدرسية لكن الحظ لم يسعفه لإكمال دراسته بسبب وفاة والده وهو في سن مبكرة وكان لا بد له من ترك المدرسة والانخراط في سوق العمل لمساعدة والدته التي كانت تعمل من المنزل على ماكنة الخياطة لتأمين احتياجات العائلة المكونة من ثلاثة أطفال ذكور واثنتين من الإناث، عمل في بادئ الأمر في محل لبيع الخضروات في منطقة جبل الحسين حيث كان يقطن هو وعائلته في منزل متواضع يتكون من غرفتي نوم وغرفة جلوس صغيرة ومطبخ ضيق وحمام واحد كان هو وأخوته يصطفونه على بابه بالدور لقضاء حاجتهم، بعد فترة أقنعه أحدهم بتعلم مهنة ميكانيك السيارات حيث أن دخلها أفضل من دخل العمل في مجال بيع الخضروات.

انتقل عماد حينها للعمل في إحدى ورش ميكانيكا السيارات في منطقة وادي الرمم واستمر في عمله ذلك إلى أن بلغ العشرين من عمره فقرر أن يقوم بهجر مهنة ميكانيك السيارات وفتح محل خاص به لبيع أجهزة الهاتف النقال ومستلزماتها، بدأ مشروعه الصغير بالقرب من دوار فراس في منطقة جبل الحسين بمبلغ من المال اقترضه من مؤسسة رعاية الأيتام بفائدة منخفضة وهو يعمل به منذ ذلك الوقت.

فرح عماد برؤيتي فقد مرت عدة أشهر دون أن أراه، أمضيت معه بعضًا من الوقت تحدثنا خلاله في العديد من أمور الحياة واسترجعنا ذكرياتنا معًا في المدرسة الإعدادية، سألته عن أوضاع المحل فأجابني بأن دخل المحل قد بدأ بالتراجع خلال العامين المنصرمين بسبب ارتفاع الأسعار من ناحية والاعتصامات المتواصلة التي يقوم بها من يدعون أنفسهم بالحراك الشعبي والذين اتخذوا من منطقة الدوار مكانًا للتظاهر والاعتصام خاصة في أيام الجُمع والعطل الرسمية وهو ما أثر سلبًا على المحال التجارية الموجودة في المنطقة حيث أن الكثير من الزبائن عزفوا عن القدوم إلى المنطقة بسبب الإغلاقات المتكررة للطرق المحيطة، أحزنني ما سمعته من عماد وحاولت أن أواسيه مطمئنًا إياه بأن الأمور لا بد من أن تعود إلى سابق عهدها ويستعيد زبائنه من جديد.

- أرجو ذلك يا خالد، الله يحمي هالبلد.

- آمين يا رب.

- والله أننا لم نعد نعلم من نصدق في هذه الأيام الحكومة أم الحراك الشعبي، فلا أحد يعلم ما تخفيه النفوس.

- الله يمنح الخير للبلاد والعباد.

كان عماد قد تزوج من إحدى قريباته ورزق منها بمولودة في العام الفائت، سألته عن الطفلة فأطلق تنهيدة قد خرجت من أعماق قلبه الموجوع:

- مسكينة هذه الطفلة.

- خير إن شاء الله، ما بها؟

- والله أني أشفق عليها فها هي تتنقل في العيش من بيت أهل والدتها إلى بيتي، ولم تنعم منذ بضعة أشهر بالسعادة في كنف والديها.

ظهرت على وجهي علامات الاستفهام فلاحظ عماد ذلك وقام بإبلاغي أنه قد انفصل عن زوجته منذ ستة أشهر.

- سامحك الله يا عماد، لماذا قمت بذلك؟

- لم يكن أمامي من خيار أخر يا خالد فقد تحولت حياتي معها إلى جحيم فهي لا تتوقف عن مقارنة نفسها بشقيقتها التي تزوجت من أحد مقاولي البناء ودائما ما كانت تعايرني لأني لا أجلب لها الهدايا الثمينة كما يفعل زوج شقيقتها، والله يا خالد لو كان بمقدرتى ذلك لما تأخرت عنها لكن ما باليد حيلة.

- آسف لسماع ذلك يا عماد، لكن لا بُد لك من محاولة إصلاح الأمور بينك وبين زوجتك من أجل الطفلة فما ذنبها أن تعيش بعيدة عن والدها وهي لم تبلغ عامها الأول من العمر بعد.

- آه يا خالد والله ما قصم ظهري في هذه الدنيا سوى هذه المسكينة، مُنذ انفصالي عن زوجتي وأنا أعيش في دوامة، فمن ناحية الحياة معها قد أصبحت مستحليه ومن ناحية أخرى أنا لا أريد لهذه الطفلة أن تعيش في أسرة مفككة. انهمرت من عيني عماد دمعة سرعان ما قام بمسحها بظاهر كفه وحاول تغير الموضوع بسؤاله عن أحوالي.

- الحمد لله يا عماد، أموري بخير.

رغبت بأن أخبره بأنني سأفقد عملي بعد فترة وجيزة لكني أشفقت عليه فلديه من الهموم ما يكفيه ولا يجب علي أن أثقل عليه الحِمل بالشكوى عن أوضاعي، ودعت عماد والألم يعتصر قلبي على ما حل به فمنذ طفولته لم ينعم بيوم واحد هانئ، لقد أثقلته هموم الحياة حتى بدا أكبر من عمره بسنوات، الله يعين الناس على ما ابتلاها. يا رب الطف بعبادك.

بقالة العم صالح مغلقة منذ الصباح ولدى عودتي من زيارة عماد كانت لا تزال مغلقة لا بد ان لديه مناسبة اجتماعية منعته من فتح أبواب المحل اليوم، الله يجيب إللي فيه الخير، كان الطفل يجلس في مقعدي عند دخولي إلى منزلي وهو ينظر إلى ساعته ويحتسي كوبًا من الشاي الأخضر.

- حمدًا لله على السلامة، لماذا تأخرت؟

- لا شيء قمت بزيارة سالم في المستشفى بعد انتهاء العمل ثم قمت بعدها بزيارة صديق قديم من أيام الدراسة.

- ما شاء الله عليك أصبحت اجتماعي.

- لا بد لي من الاطمئنان على أصدقائي يا أستاذ لعين، أرجو أن لا يكون لديك اعتراض على ذلك.

- لا أبدًا لكني قلقت عليك.

- فيك الخير.

obeikan.com

- هيا قم بتبديل ملابسك ثم عد إلى هنا فأنا أريد التحدث اليك.

- خير إن شاء الله؟

- إن شاء الله خير فقط قم بتبديل ملابسك ثم عد إلى هنا.

قمت بتبديل ملابسي وأعددت كوبًا من الشاي بالنعناع لكن طعمه لا يشبه طعم الشاي الذي يعده العم صالح ذاك نكهته أطيب بكثير، جلست بقرب الطفل وسألته عن ما يريده مني فأجابني:

- بعد يوم غد هو يوم عطلتك الأسبوعية فما رأيك أن نذهب لقضاء اليوم خارج المنزل وربما يمكننا أن نمضي الليلة أيضاً هناك، أحسست من كلامه بأنه قد أعد لشيء مسبقًا واختار المكان أيضًا.

- أين تريد أن تذهب؟ فأنا أشعر بأنك قد اخترت مكان ما لإمضاء يوم الجمعة.

- في الحقيقة لقد سمعت أن هناك محمية طبيعية في جنوب الأردن "محمية ضانا" يقال بأنها من أجمل المناطق في الأردن وتحتوي أيضًا على أماكن للمبيت، فلما لا نذهب إلى هناك ونمضي بعض الوقت ثم نعود إلى عمان يوم السبت.

- لكن محمية ضانا بعيدة وأنا لا أملك سيارة للذهاب إلى هناك بالإضافة إلى أنني لا أملك المال لذلك.

- هذ ليست بمشكلة فلقد قمت بالبحث وعلمت بأن هناك شركة حافلات سياحية تنظم رحلات يومية إلى تلك المنطقة وبمقابل مادي زهيد.

- ما شاء الله مجهز كل شيء. وماذا عن تكلفة المبيت؟

- ليس ذلك بمشكلة أيضاً فالمحمية تحتوي على خيام جاهزة للسكن ويمكننا استئجار إحداها مقابل بضع دنانير. لن تكلفنا الرحلة كثيراً فأجرة الحافلة وأجرة الخيمة لليلة واحدة لن تتجاوز مبلغ العشرين دينار ويمكننا أن نأخذ معنا بعض الطعام المعلب لنتناوله هناك، أرجوك يا خالد أن توافق على ذلك فأنا قد مللت من الجلوس في المنزل ثم أنك بحاجة للابتعاد عن جو العمل لبعض الوقت كي تستعيد نشاطك.

- دعني أفكر في الأمر.

- لا داعي للتفكير الأمور سهلة وليست بحاجة للتفكر بها، توقف عن التصرف كالبالغين ولو لمرة واحدة وقم بمجاراة ما يقوله لك قلبك فأنا

أعلم أنك ترغب بهذه الرحلة تمامًا كما أرغب أنا بها فلماذا تقوم بتعقيد الأمور!

بدا كلامه منطقيًا، فعلاً أنا بحاجة لبعض الوقت بعيدًا عن المنزل والعمل للاسترخاء وتجديد نشاطي وكما يقول الأستاذ لعين فالتكلفة معقولة. حسنًا يا أستاذ لا مانع لدي من ذلك، قفز الطفل من مقعده من شدة الفرح وقام باحتضاني. ما بال هذا اللعين فقد تكررت عملية احتضانه لي عدة مرات في الأيام السابقة؟ تذكرت ما قمت به من احتضان للمرضة عندما أخبرتني بأن سالم سيكون بخير لا بد أنها لا تزال مندهشة بسبب ما قمت به. لا داعي لتعقيد الأمور فهذا الطفل يتصرف بعفوية كما تصرفت أنا بعفوية في ذلك اليوم.

*****

لم يقم العم صالح بفتح بقالته في اليوم التالي أيضًا فقمت بزيارته في المساء خوفًا من أن يكون يعاني من إعياء ما أو أن يكون شيء غير سار قد حدث معه، استقبلني العم صالح ببشاشة وجهه المعهودة ودعاني للدخول، لقد تغير مظهر العم صالح كثيرًا خلال اليومين الماضيين، التعب بادٍ على محياه وبالكاد كان قادرًا على المشي، كان يمسك بجانبي ظهره بكلتا يديه وهو يسير أمامي، توقف عدة مرات لالتقاط أنفاسه على الرغم من أن المسافة من باب المنزل إلى غرفة استقبال الضيوف لم

تتعدَ بضعة أمتار، يا إلهي ماذا حل بالعم صالح! فإلى وقت قريب كان يتمتع بحيوية ونشاط كان جميع سكان الحي يحسدونه عليها. لابُد أن مرض ما قد أصابه، ربنا يشفيه.

- كيف حالك يا عم صالح؟

- الحمد لله يا ولدي، راضين بقسمته.

- ونعمَ بالله يا عم، لقد أقلقتنا عليك، لماذا لم تقم بفتح البقالة خلال اليومين الماضيين؟

- قد صدرت الأوامر يا خالد.

- أي أوامر يا عم؟!

- أوامر زياد أفندي.

قالها وقد كاد يغص بالكلام، والألم بادٍ على تعابير وجهه.

- من يكون زياد يا عم؟ إذا لم يكن لديك مانع طبعًا.

- زياد، ابني البكر يا خالد.

- آه حسنًا، لكنك لم تخبرني من قبل بأن لديك أولاد يا عم.

obeikan.com

- ربما لم تأتِ مناسبة على أي حال فأنا لدي ثلاثة أبناء،

"زياد" وهو أكبرهم رجل أعمال كما يرغب بأن يطلق الناس عليه على الرغم أنه لم يتعدَّ كونه تاجر عقارات، أما "جهاد" فيصغره بسنتين ويعمل مدرسًا في الجامعة وحاصل على شهادة الدكتوراه في علم الاقتصاد، وأصغرهم "وداد" وهي تعمل طبيبة أسنان.

- ما شاء الله يا عم يبدوا أنكم عائلة محبة للعلم، بارك الله لك بهم جميعًا.

- وبك يا ولدي.

لم أفهم ما عناه العم صالح بقوله "إنها أوامر زياد أفندي" ولم استطع كبت فضولي فقمت بسؤاله مجددًا عن سبب عدم فتح البقالة. تنهد ثم قال لي:

- لقد كان زياد يلح علي منذ فترة كي أقوم بإغلاق البقالة والاستراحة في المنزل فقد تقدم بي السن وزياد رجل مقتدر الآن وقد تعهد بالاهتمام بجميع احتياجاتي أنا ووالدته ولا داعي لي للعمل بعد الآن. لم أكن أرغب بذلك لكن لم يكن لي بُد من الانصياع لأوامره كي لا أخسره. كل شيء في الدنيا يهون يا خالد في سبيل الحفاظ على الأبناء وبقائهم من حولي.

لم أفهم ما عناه العم صالح بأنه وافق على طلب زياد خوفًا من أن يخسره لكني لم أقم بسؤاله عن ذلك فهذا شأن عائلي

لا علاقة لي به، قلت له:

- بارك الله به أنه فعلًا ابن بار بوالديه.

لم يرد العم صالح على ما قلته وجلس صامتًا لكن علامات الامتعاض كانت واضحة على وجهه. استمر الصمت لفترة غير وجيزة كنت خلالها أعيد في مخيلتي ما تفوهت به خوفًا من أن أكون قد تفوهت بشيء أزعج العم صالح فأنا كما يقول لي الطفل دائمًا مغفل وربما أفلتت مني كلمة جرحت العم صالح، لم أجد في ما قلته أي سبب لانزعاج العم صالح، أردت أن أقطع هذا الصمت المطبق على المكان:

- ما بك يا عم، لماذا لا تتكلم معي؟ هل مللت مني؟

- استغفر الله يا ولدي، لا يمكن لي أن أمل منك فأنت بمثابة أحد أولادي لكني شردت بأفكاري بعض الشيء.

صمت قليلاً ثم انتفض في كرسيه كمن سُكب عليه ماء مثلج في ليلة شتوية شديدة البرودة وبدأ يتحدث بغضب:

- الاستاذ زياد يخجل من عملي، بعد كل هذه السنين أصبح عملي في البقالة مصدر عار له، طبعًا فهو الآن من أصحاب الأموال ويجالس عُلية القوم. لقد نسي فضل الله ثم فضل هذه البقالة عليه، لم يعد يذكر أنني ووالدته كنا نصل الليل بالنهار من أجل تربيته وإخوته التربية الصالحة، ونسي أنه لولا هذه البقالة لما وصل إلى ما هو فيه الآن. منذ أن كان طفلاً وأنا أقلق عليه من نظرته للحياة، لقد كان دائمًا أنانيًا ولم يكن يسمح لإخوته الأصغر منه بمشاركته اللعب بألعابه، هو لا يفكر إلا في نفسه ولا يتوانى عن اتباع كل السبل من أجل الحصول على غايته، إياك أن تصدق يا خالد أن طلبه إلي بالتوقف عن العمل هدفه راحتي، أنا أعرف ابني جيدًا، هو لا يريد أن يقول الناس بأن والده يعمل في بقالة خاصة وهو يعد العدة للترشح لمجلس رجال الأعمال السابع عشر عفوًا مجلس النواب السابع عشر. والله لولا خوفي من أن يحملني مسؤولية فشله في الانتخابات لا سمح الله لما انصعت لأمره لكني لا أريد أن يأتي يومًا ويلومني بأنني السبب في عدم إدراكه لمبتغاه فأنا أعرفه جيدًا فهو دائمًا ما يلقي باللوم على غيره ولولا العيب والحياء لحملني مسؤولية ضياع فلسطين، هل تعتقد يا خالد بأني راغب في الجلوس في البيت كالنساء بلا عمل؟ العمل هو كل حياتي وجلوسي في البيت الآن سيقتلني يا ولدي، الرجل الذي لا يعمل يصبح حمولة زائدة على هذه الدنيا ولا بد لها من أن تتخلص منه وتلقي به إلى غياهب الأرض.

- وحد الله يا عم صالح، اعتبرها فترة إجازة وبعد انتهاء الانتخابات يمكنك العودة للعمل في بقالتك كالسابق، لم يبقَ على الانتخابات سوى أقل من شهرين يا عم وعندها لكل حادث حديث.

- هذا إذا أحياني الله إلى ذلك الوقت.

- ربنا يطول في عمرك يا عم.

- شكرًا لك يا ولدي، واعذرني على ما بدر مني.

ودعت العم صالح وأنا في غاية القلق عليه فقد بدا غاضبًا ومحبطًا من جلوسه بلا عمل، يا إلهي هل هذا ما سيكون عليه حالي عندما أفقد عملي بعد ثلاثة أشهر من الآن؟ لا بد لي من إيجاد فرصة عمل أيًا كانت، لا يمكن أن أسمح لنفسي أن أجلس بالبيت كالنساء كما قال العم صالح.

أمضيت ما بقي من المساء وأنا أعد العدة للرحلة إلى محمية ضانا في الصباح وكان الطفل يساعدني ويعد العدة هو أيضًا، قمنا بحزم حقائبنا وقد ملأناها بما نحتاجه من الملابس، والأطعمة المعلبة وقليلاً من المكسرات الرخيصة الثمن وبعض العصائر، وفي الصباح توجهنا إلى منطقة "العبدلي" لنستقل الحافلة من موقف شركة الحافلات، استغرقت الرحلة من عمان إلى المحمية ما يزيد عن الساعتين والنصف

استمتعت والطفل خلالها بمناظر الربيع الذي فرد عباءته على مد البصر بعد موسم شتوي خيّر. رائحة الأزهار التي كان أريجها يفوح في كل مكان ويتسرب إلى أنوفنا عبر النافذة المفتوحة كان آسرًا ومنعشًا في آن واحد. لقد كان الطفل على حق أنا فعلاً بحاجة لهذه الرحلة للترفيه عن نفسي وإعادة شحن همتي، لم تكن الحافلة ممتلئة في ذلك اليوم مجرد بعض السائحين الأجانب الذين توحي ملامحهم بأنهم من منطقة شرق أوروبا وإذا صدق حدسي فهم من جمهورية روسيا الاتحادية بالتحديد.

لدى عودتنا إلى المنزل في مساء اليوم التالي كان الحي يعج بالغرباء. السيارات لم تترك مكانًا إلا واصطفت به، حركة دؤوبة لم يعهدها حينا الصغير من قبل، مجموعات من الناس تأتي معًا أو تغادر معًا لكن رغم تلك الحركة الدؤوبة كان جو من الحزن يخيم على المكان، حتى أن أطفال الحي الذين غالبًا ما يملئون المكان بصرخاتهم المتعالية وهم يمارسون لعبة كرة القدم في الشارع العام، كانوا يجلسون على عتبات منازلهم يرقبون وفود القادمين والمغادرين والحزن مخيم عليهم. محل الخياطة المقابل لدكان العم صالح كان مغلقًا على غير عادته وكذلك هو محل تصليح الأحذية ومطعم الحمص في نهاية الطريق. اقتربت من أحد الاطفال الجالسين على عتبة منزله وسألته عن ما يجري، أجابني والدموع تفر من عينيه:

- البقية بحياتك، العم صالح تُوفيَّ فجر اليوم.

صعقت لسماع الخبر، إن لله وإنا اليه راجعون، ربنا يرحمك يا عم صالح، لم يمت العم صالح لكن قتلته أنانية ابنه زياد، لو كنت أعلم أن هذا ما سيحل بالعم صالح لما غادرته للحظة واحدة ولبقيتُ بقربه ليل نهار، سامحني يا عم صالح...

زاد خبر وفاة العم صالح في الحزن الذي كان يتملكني بسبب المناظر المؤلمة والتي تندى لها النفس البشرية التي مررنا بها في طريق عودتنا من زيارة المحمية، كان سائق الحافلة قد قرر أن يتخذ طريقًا مختصرًا في طريق العودة، خرجت بنا الحافلة عن الطريق المعبد وسارت بنا على طريق ترابي مليء بالحفر والحجارة، كانت الحافلة تهتز بنا بسبب وعورة الطريق وعدم استوائه، تيقنا في كثير من الأوقات بأن نهايتنا قد أوشكت فلا بد أن الحافلة المتأرجحة ستنقلب بنا في أية لحظة، لا أزال لا أعلم لماذا قرر سائق الحافلة سلوك تلك الطريق. ربما أنه القدر الذي شاء أن نمر في ذلك الطريق لنشهد البؤس الإنساني متجليا في أقوى صوره.

بعد أن سرنا ما يقرب من نصف ساعة بين الصخور والمنحدرات عبرنا بقرية صغيرة نسيها الزمان خلفه، أطفال شبه عراة، حفاة الأقدام، لفحتهم الشمس إلى أن أحرقت جلودهم، شعورهم شعثاء ومغبرة، تشققت أقدامهم من السير فوق الحجارة والأشواك، طواهم

الجوع حتى بدوا كهياكل عظمية اتخذت من جلودهم غطاءً رقيقاً لها، اتخذوا من ظلال أغصان الشجر المتناثرة على مسافات متباعدة بيوتًا لهم ورغم ذلك كله فإنهم لم يفقدوا قدرتهم على الابتسام والتلويح بأيديهم الصغيرة لنا أثناء عبورنا. لم تكن النساء اللواتي خرجن للاحتطاب بأحسن حال من أولادهن وكذلك هي حال الرجال الذين خرجوا لرعي بضع أغنام هزيلة، بؤس إنساني منقطع النظير، كنت في السابق قد سمعت عن عائلات تسكن في مدن الصفيح أو قد اتخذوا من الكرتون مادة وحيدة لبناء منازلهم؛ لكنها المرة الأولى التي أعلم فيها أن ظلال الأشجار يمكن أن تصبح بيوتًا لعائلاتٍ بأكملها، دعاني ذلك المنظر المروع إلى التفكير في النعم العديدة التي وهبني إياها الله، فأنا أملك مكانًا أبيت فيه، وأتنقل راكبًا، وآكل حتى أشبع، لدي من الثياب ما يقيني برد الشتاء وأشعة الشمس، وغيرها من وسائل الحياة المرفهة إذا ما قارنها بما يملكه أولئك المساكين. لقد كنت دائمًا أتذمر من أنني أحيى في شقاء وفقر ولكن بعد ما رأيته اليوم تأكدت بأن حالي أفضل بكثير من أحوال الكثير من البشر واني أملك ما يفيض عن حاجتي من النعم.

احمدك يا رب على ما وهبتني. خرجت الحافلة إلى طريق مُعبَّد ضيقٍ يتسع شيئًا فشيئًا كلما تقدمنا في السير. طريق عريض ذو ثلاثة مسارب في كل اتجاه، محاط بالأشجار اليانعة، مضاء بعناية تمنع الظلام من أن يحل في المكان، على جانبي الطريق تنتشر بيوت فارهة تصطف أمامها

أفخر السيارات. مفارقة لا يمكن وصفها فلا يفصل بين البؤس الممعن والثراء الفاحش سوى ساعة واحدة من القيادة، عالمين على طرفي نقيض، شردت متفكرًا في هذا التناقض الرهيب ما بين العالمين الى أن نبهني الطفل بسؤاله:

- ما بك؟

- لا شيء لكني أتمعن في سعادة هذا العالم وتعاسة العالم الذي خلفناه ورائنا.

- ما الذي يجعلك تعتقد أن الناس هنا سعداء؟

- ألا ترى النعيم الذين يحيون فيه؟

- أنا لا أرى سوى الحجارة المشيدة والحديد السيار لكني لا استطيع أن أرى ما داخل نفوس البشر القاطنين هنا وبالتالي لا يمكنني أن أحكم أيهم أسعد من الأخر.

لم أفهم ما عناه الطفل بما قاله فسألته عما يعنيه. أجابني: لا تستعجل الأمور فسيأتي يوم تدرك فيه كل شيء. جلست في مقعدي بهدوء بعد ذلك ولم أتبادل أية كلمة مع الطفل طوال الطريق إلى أن وصلنا إلى المنزل، كان التعب قد نال منا بسبب الرحلة الطويلة، نام الطفل

obeikan.com

مباشرة أما أنا فلم أعرف للنوم سبيلاً وأمضيت الليل متأرجحًا بين أفكاري ما بين مناظر البؤس التي لم أرها من قبل والمناظر الخلابة التي آسرتني في المحمية والحديث الذي دار ما بيني وبين الطفل خلال إقامتنا فيها.

كنا قد وصلنا إلى المحمية قرابة الساعة العاشرة صباحًا. انزلتنا الحافلة بالقرب من مركز استقبال الزوار الذي يتربع على رأس جبل على ارتفاع ألف وخمسمائة متر فوق سطح البحر. منظر رائع لأشعة الشمس وهي تعانق صخور المحمية ووديانها. استقبلنا العاملون هناك بغاية الحفاوة ثم قام أحدهم بشرح تعليمات الإقامة في المحمية لنا:

*يمنع الصيد وجمع النباتات أو الصخور من المحمية.

*يمنع الاقتراب من الأحياء البرية أو محاولة إطعامها.

*يمنع الحفر أو الكتابة على الصخور.

*يمنع إشعال النار داخل المحمية إلا في الأماكن المخصصة.

*يرجى الحفاظ على مستوى منخفض من الإزعاج.

*يرجى عدم التدخين إلا في الأماكن المخصصة لذلك.

بعد الانتهاء من الاستماع لتعليمات الإقامة باشرنا السير إلى المحمية وكان علينا أن نسير مسافة لا بأس بها انحدارًا إلى أسفل الجبل حيث موقع التخييم. مناظر خلابة تأسر الإنسان ما أن تقع عينيه عليها،

الصخور الملونة التي تغزل قصة عشق أزلي مع أشعة الشمس، الوديان المتعرجة التي يتخيل للمرء أنها تهتز فرحًا وسط الخضرة المحيطة، عشرات الأنواع من النباتات النادرة الرائعة، العديد من الحيوانات التي تتمشى بأمان في الوديان. فردوس أرضي يمتد على مساحة مئات الكيلومترات، سكون وهدوء يعيد الطمأنينة للنفس البشرية.

ياه ما أجمل هذا المكان. وقفت على إحدى الصخور مرسلاً نظري عبر الوديان الممتدة حتى أحسست بأني أحلق بخفة في عالم سحري منقطع النظير. يتوسط المخيم بيت شعر كبير أثار منظره الحنين في نفسي إلى أيام كانت الصحراء الأردنية تمتلئ بساكني مثل هذه البيوت، أمامه مكان مخصص لإشعال النيران ومن حوله قناديل زيتية لا بُد أنها تستخدم للإنارة عندما يحل المساء، انتشرت بقربه بعض الخيام الدائرية البيضاء اللون والتي كانت إحداها مكان إقامتي والطفل لليلة التالية. عمود في وسط الخيمة يبقيها صامدة في وجه الرياح، أرضيتها من البلاستيك الأسود المفروش فوق الرمل الذي تمت تسويته بعناية، تتصل أرضية الخيمة بجدرانها بحيث أنها تصبح معزولة تماما عن الخارج لحظة إقفالها. بساطة فيها الفخامة.

قمنا بإخراج أغراضنا وترتيبها في الخيمة استعدادًا لقضاء الليلة فيها. غادر الطفل الخيمة بعد دقائق معدودة وتركني بمفردى أكمل العمل

على ترتيب الأغراض. عندما انتهيت من العمل خرجت للاستمتاع بالمناظر الخلابة. كان الطفل يجلس بهدوء محدقًا بزهرة نبتت بين الصخور. اقتربتُ منه فأشار إليّ بيده للجلوس بقربه على الصخرة التي كان يجلس عليها ففعلت. مرت بضع دقائق والطفل يحدق بالزهرة دون أن يتفوه بأية كلمة. أردت أن أقطع هذا الصمت فبادرته بالقول:

- فعلاً إنها زهرة جميلة.

انتفض الطفل فور سماع كلماتي موجها كلامه لي:

- يا لك من أحمق ثم غادر المكان متوجهاً إلى داخل الخيمة.

فآجأني تصرفه معي فأنا لم أقم بأي فعل يزعجه أو يستحق أن ينعتي بالأحمق. يا له من طفل لعين، ما كان يجب علي أن استجيب لطلبه ومرافقته إلى هذا المكان. قمت باللحاق به إلى داخل الخيمة فإذا به يجلس والاستياء بادٍ على وجهه فسألته عما به، أجابني:

- لقد أفسدت علي متعتي.

- أنا! كيف؟ فكل ما قلته أنها زهرة جميلة فما الخطأ في ذلك؟

- توقف.. لا تكررها ثانيةً.

- لا أكرر ماذا؟

- لا تكرر ما قلته.

- ما بك؟ هل أصابك الجنون؟ ما بالك تتصرف على هذا الشكل.

- لا لم أصب بالجنون لكنك أفسدت علي متعتي.

- استحلفك بالله أن تخبرني كيف أفسدت عليك متعتك..

- لقد كنت استمتع بالجمال إلى أن جئت أنت وأطلقت عليه اسم فأفسدت متعتي.

- أنا لا أفهمك. ما بك اليوم تتكلم بالألغاز؟ وضح كلامك او دعني وشأني.

- حسنًا استمع جيدًا لما سأقوله لك وأرجو أن لا تقاطعني إلى أن أنتهي.

- تفضل يا حضرة الأستاذ.

- إن كل متعة في الدنيا تفسد عندما نطلق عليها أسماء. لقد خلق الله الجمال في هذا العالم كي نستمتع به لا كي نبحث له عن أسماء. لقد كنت أجلس في الخارج استمتع بالجمال الى أن أتيت انت واطلقت عليه

obeikan.com

اسم " زهرة" أتعلم ما حدث عندما قمت بذلك؟ لقد أثرت ذاكرتي لاسترجاع صورة جميع الأزهار التي رأيتها في حياتي فيما سبق، وبدأت أقارن ما بينها وبين الجمال الذي كان أمامي فانشغلت عن الاستمتاع به بالمقارنة بينه وبين الأزهار التي رأيتها سابقًا. تلك كان لونها أجمل، الزهرة التي رأيتها في الحديقة العامة كانت أوراقها أكثر لمعانًا، تلك التي رأيتها على الطريق إلى المحمية كانت أكبر من هذه، وغيرها من المقارنات التي أبعدتني عما أمامي وأدخلتني في عالم المقارنة. كي نستمتع بما حولنا علينا أن ننظر إليه كشيء مجرد دون أن نعمل على مقارنته بأي شيء أخر. علينا أن نحيى في اللحظة التي نحن بها.

توقف الطفل قليلاً عن الكلام فانتهزت الفرصة للكلام:

- في الحقيقة أنا لا أفهمك تمامًا..

- حسناً، أتذكر ذلك اليوم الذي تقابلنا به لأول مرة حين كنت تجلس في المقهى؟

- كيف لي أن أنساه.

- اتذكر مدى الشوق الذي شعرت به للعودة لمنزلك؟

- نعم أذكر ذلك جيدًا فقد كنت أتحرق حنينًا وشوقًا لمنزلي لأول مرة في حياتي.

- ممتاز، أتعلم لماذا أصبت بهذا الشعور؟ على الرغم من أنك كنت دائما تنظر إليه على أنه سجن بسبب صغره وقدمه؟ سأقول لك لماذا؟ لأنك في تلك اللحظة كنت تفكر به كشيء مجرد بعيدًا عن الاسم. لقد كنت تتخيل ما يقدمه لك من راحة ودفيء، لقد كنت تفكر به لا باسمه، لو كنت في تلك اللحظة فكرت في الاسم لكنت أثرت في مخيلتك المقارنات وحكمت عليه بأنه صغير وقديم مقارنة بمنزل صديقك سالم أو منزل مديرك مالك ولكنت في تلك اللحظة فقدت شوقك إليه، إذا أردت أن تستمتع بالحياة فعليك فقط أن تركز اهتمامك على ما هو أمامك دون التفكير في أي شيء أخر، أن سبب تعاسة معظم البشر في هذا العالم هو تعلقهم بالأسماء.

- حسنًا أعتقد أني بدأت أفهمك الآن..

- جيد، ما أحاول أن أقوله لك هو أنه عليك دائمًا أن تستمتع بما تراه أمامك أو ما تقوم به دون أن تفكر بأي شيء أخر ودون أن تقارن بين ما تفعل وبين ما يفعله غيرك أو بين ما تملك وما يملكه غيرك. عليك أن تحيى اللحظة بكل تجلياتها. إياك أن تفكر في الماضي فهو قد ذهب ولن تستطيع تغيير أي شيء فيه، مهما فكرت ومهما حاولت وكذلك هو

المستقبل فهو يوم لم يأتِ بعد فلا تقلق منه ولا تخشَ مما سيجلب إليك حين يجيء، دع المستقبل يتكفل بنفسه. الماضي ذهب والمستقبل لم يأتِ. الحقيقة الوحيدة التي أمامك هي الحاضر فاحياه بكل ما فيه وحاول أن تستمتع به. مشكلتكم أيها البشر أنكم تمضون أوقاتكم في اجترار الماضي أو الخوف من المستقبل فلا تحيون حاضركم. تذكر دائمًا أن الماضي قد مات والمستقبل لم يولد بعد. عِش يومك كما هو، لا تطلق الأسماء على أي شيء بل انظر إليه بعينيك واستمتع به. لا تنظر للأشياء بعقلك بل بقلبك وحينها لن تفقد متعة الحياة.

- كلامك جميل لكن تطبيقه صعب.

- لا صعوبة في البساطة، فقط لا تعقد الأمور وانظر إليها كما هي، عِش حياتك لحظة بلحظة.

تركني الطفل وحدي في خيمتي أفكر في كلامه وأقلبه على جميع أوجهه. إنه كلام جميل ومنطقي فأنا لا يمكنني تغير الماضي ولا يمكنني استعجال المستقبل فلما الحزن على ما مضى أو الخوف مما سيأتي، قطع الطفل علي تفكيري حيث أنه دخل الخيمة مسرعًا وجذبني من يدي:

- هيا بنا.. أسرع.

- إلى أين؟

- فقط اتبعني وإياك أن تطلق الأسماء في الخارج.

وقفنا أمام غزالٍ في غاية الروعة، عيناه متسعة، جلده لامع، قوائمه رشيقة، وعدوه يشبه الرقص. أمضيت بعض الوقت وأنا أتأمل في منظره الرائع مستمتعًا وفرحًا إلى أن اختفى في الوديان المتعرجة، لم أفكر في أي شيء في تلك اللحظة سوى الاستمتاع بما أمامي. لقد كان الطفل محقًا فيما قاله لي، لن أطلق الأسماء على الجَمال بعد الآن ولن أقارن بين ما أمامي وما في مخيلتي.

خلدنا للنوم مبكرًا بعد يوم حافل بالاستكشاف والاستمتاع بما تحويه المحمية من حياة برية يحيى فيها النبات والحيوان في انسجام منقطع النظير. أيقظني الطفل في ساعة مبكرة من الفجر حاثًا إياي على الخروج إلى خارج الخيمة. جلسنا على الأرض الندية نستمتع بالمنظر الخلاب الذي أمامنا. الشمس تصحو كسولة وترتفع بهدوء وطمأنينة من خلف الجبال، اشعتها الذهبية المائلة إلى الحمرة تداعب الأزهار والأعشاب في مرورها، نورها أحال الصخور إلى كُتل من الذهب. منظر رائع زادته نسمات الهواء العليل النقي التي كانت تتراقص حولنا جمالاً على جمال. لم نتفوه بأي كلمة ولم نفكر بأي شيء كل ما فعلناه هو الجلوس والاستمتاع بالجمال. هدوء تام.. سكينة رائعة.. مناظر خلابة.. فردوس دنيوي ساحر...

عـدتُ إلى المنزل بعـد يـوم حافـل بالعمـل، الطفـل يجلـس في غرفـة الجلوس مرتديًا قميصًا أبيضًا وبنطالاً أسودًا وينتعل حذاءً أسودًا شديد اللمعان وقد صفف شعره بعناية حتى بدأ كأنه يتهيأ لحضور مناسبة هامة، لقد كان جميلاً جدًا في تلك اللحظة. إلى جانبه حقيبة صغيرة منتفخة بسبب ما تحتويه. سلمت عليه وجلست إلى قربه.

- ما شاء الله. هل لديك حدث هام اليوم؟ لماذا لم تخبرني بذلك.

- نعم حدث مهم ولكن بالنسبة لك وليس لي..

- لي أنا!

- نعـم، إنـه اليـوم الموعـود، لقـد انتهـت الأيـام السـبعة التي أتفقنـا عليهـا والآن لا بد لي من المغادرة.

- تغادر إلى أين؟

- أعـود إلى حيث كنت.. لقد أديت مهمتي وأنا كما ترى ألتزم بعهودي وقد عاهـدتك أن أتركـك وشـأنك بعـد انقضـاء المـدة المحـددة وهـا أنـا أفي بوعدي.

- لا أرجوك ابقى معي، لقد تعودت على وجودك في حياتي ولا أريدك أن تغادر..

- غريب أمرك يا خالد... قبل أيام قليلة كنت لا تطيق وجودي وكنت على أتم الاستعداد لأن تفعل أي شيء من أجل التخلص مني والآن ترجوني أن أبقى!

لا أعلم لماذا تغير موقفي تجاه هذا الطفل وأصبحت متعلقًا به ولا أريده أن يغادر حياتي. فعلاً العِشرة تنشئ روابط المحبة. حاولت أن أقنعه بالبقاء لكنه كان مُصرًا على رأيه. بدأت أبحث عن طريقه لمنعه من المغادرة إلى أن تذكرت بأنه لم يبلغني من هو ومن أين أتى؟ هذه حجة كافية لمنعه من المغادرة الآن:

- لا يمكنك المغادرة فأنت لم تفي بوعدك بعد.

- أي وعد، لقد وفيت بكل ما وعدتُ.

- ليس كل شيء. أنت لم تخبرني منْ أنت بعد.

- يا ألهي، ألم تعرفني بعد؟ هل حقًا لا زلت لا تعلم من أنا أم هي حيلة أخرى من حيلك؟

- لا فعلاً أنا لم أعرف منْ أنت بعد.

- حسناً اتبعني..

دخل أمامي إلى غرفة النوم وأنا اتبعه كظله. أمسك بيدي ودفعني أمام المرآة ووقف بقربي:

- انظر إلى المرآة...

نظرت على حيث طلب مني ولكني لم أرَ سوى صورتي وحدي أما صورته فلم تظهر في المرآة على الرغم من أنه يقف بقربي. نظر إلي وقال:

- الآن يمكنني المغادرة.

- ماذا تعني؟

- أعني أنني قد وفيت بعهدي الآن.

- لا تتلاعب بي، فأنت لم تجبني بعد على سؤالي. من أنت؟

- يا ألهي ألم تفهم بعد!

- أفهم ماذا؟

opelikan.com

- انظر إلى المرآة..

نظرت كما أمرني ومرة أخرى لم أرَ سوى صورة وجهي.

- أنا لا أرى سوى نفسي في المرآة..

- بالضبط... والآن وداعًا.

- انتظر ماذا تعني؟

- أعني أنك ترى الجواب أمامك...

- لقد قلت لك أني لا أرى سوى صورة وجهي...

- وماذا كنت تنتظر أن ترى؟

تركني متسمرًا في مكاني كمن رأى شبحًا وغادر الغرفة. لحقت به وأمسكت به وهو يغاد باب المنزل:

- توقف... أرجوك لا تذهب.

- لا بُد لي من الذهاب الآن، انتبه لنفسك ولا تنسَ ما تناقشنا به، مبدأ الرصاصة الثانية، لا ترتدي النظارات، تصرف كالأطفال، لا تدع الألقاب تقيدك، لا تطلق الأسماء على الجمال،

obeikan.com

ولا تكترث بالماضي أو المستقبل بل عِش الحاضر بكل تجلياته. هذه مفاتيح السعادة يا خالد، لقد انهيت مهمتي وشاركتك بما أعرفه لكن المهم أن تعرف كيف تستغل هذه المعرفة.. وداعًا يا خالد.

غادر الطفل المكان وأقفل باب منزلي علي وحيدًا من جديد. المنزل الآن موحِش ولا حياة فيه. لقد ملأ ذلك الطفل المكان بالحياة والنشاط خلال الأسابيع الماضية وعلى الرغم من كل الأفعال التي قام بها والمشقة التي تسبب لي بها إلا أني أشتاق إليه وأفتقده بشدة. جلست في مكاني حزينًا على فراقه. لم أفعل شيء طيلة المساء سوى الجلوس في مكاني والتأمل في المعرفة التي شاركني بها الطفل. ليته يعود...

عندما فقدت كل أمل بعودته توجهت لغلق الباب، هناك صورة ملقاة على الأرض لا بد أنها سقطت من حقيبة الطفل وهو يهم بمغادرة المكان، التقطها من الأرض فتأكدت ظنوني، إنها صورة الطفل، هناك شيء مكتوب على خلف الصورة: "خالد وهو في الخامسة من العمر، التقطت عام ١٩٩٢ في مدينة الألعاب في منطقة الجبيهة" لم أصدق ما تراه عيني.. قلبت الصورة من جديد وتمعنت بها جيدًا... إنها فعلاً صورة الطفل ولكن لماذا كتب على ظهرها أنها صورتي... لابُد انها لعبة جديدة من ألاعيب ذلك الطفل. لكن الخط على ظهر الصورة هو خط والدتي فأنا أعرفه جيدًا وأعرف طريقة كتابتها للأحرف.

عدت بذاكرتي إلى أيام لقائنا الأول واستعدت بعض كلماته:

"أنت تعرفني جيدًا ولا أحد يعرفني مثلك... أنا أسكن هنا منذ اليوم الأول الذي انتقلت أنت فيه للسكن هنا... أرجوك لا تسجني مجددًا، أما كفاك أنك قد سجنتني عشرين عامًا..."

يا إلهي كم كنت مغفلاً، لقد كان أمامي طوال الوقت ولم أتمكن من التعرف عليه... غادر الطفل حياتي ... لا لقد عاد هو ... وغادرت أنا...

عدت لممارسة حياتي كالسابق ولكن غياب الطفل من حياتي ترك فراغًا كبيرًا فيها، لا زلت أحاول باستمرار أن استعمل مفاتيح السعادة التي منحني إياها قبل مغادرته فأنجح حينًا وأفشل حينًا آخرًا لكني أتقبل كلتا الحالتين بفرح. لقد تغيرت نظرتي للحياة وبدأت أرى العديد من الأمور من منظور مختلف فأنا الآن أتعامل مع كل شيء بنوع من العفوية ولا أمعن في تحليل وتفسير الأحداث كما كنت أفعل في السابق. بدأت أركز أكثر على أن أعيش اللحظة بكل تجلياتها ولذلك فأنا أكثر سعادة بحياتي الآن. لاحظ العديد من الأشخاص الذين أتعامل معهم تغيرًا في شخصيتي. تغير غامض كما يحلو لزملائي في العمل تسميته. كل شيء في حياتي يبدو أجمل الآن لكن شيئًا واحدًا لا يزال يسبب لي الحزن ولم يفارقني منذ يوم عودتي من رحلة المحمية. منظر أولئك الأطفال المحرومين من أبسط مقومات الحياة لا يفارق مخيلتي أبدًا. لا بُد لي من

أن أحاول فعل شيء لمساعدتهم فحزني لن ينفعهم ولن يحسن من أحوالهم. حزني مجرد رصاصة ثانية لا نفع منها... هناك شيء في داخلي يشعرني بأن من واجبي فعل شيء لمساعدتهم لكني لا أعرف من أين أبدأ وما الذي يمكنني فعله. أمضيت عدة أيام وأنا أفكر في السبيل الأمثل لمساعدتهم لكني فشلت في مسعاي حيث أنني لم أصل إلى أي نتيجة ولا زلت عاجزًا عن فعل أي شيء. لا بد من إيجاد طريقة ما لمساعدتهم، هذا واجبي الإنساني.

تحدثت إلى بعض الأصدقاء عن ما رأيت وعن ما يجول في نفسي وعلى الرغم من أنهم جميعًا أبدوا تحمسًا لفكرة مساعدة أهل تلك القرية إلا أن أيًا منّا لم يقدم أي اقتراح قابل للتنفيذ. حاولنا الاتصال بعدد من الجمعيات الخيرية لمحاولة الحصول على مساعدة منهم لكن للأسف فإن جميعهم اعتذروا عن مد يد العون وذلك بسبب قلة مواردهم، كان لا بُد لي من أن أفعل شيء... لا أعرف ماذا أفعل لكني متيقن من أنه من واجبي فعل شيء ما.

التقيت في المساء مع سالم الذي عاد لممارسة حياته الطبيعية بعد العملية الجراحية التي أجريت له، حددنا موعد اللقاء ومكانه... الساعة الثامنة مساءً في مقهى الأمل في وسط المدينة. وصلت في الوقت المحدد. سالم يجلس على أريكة في زاوية المقهى بعيدًا عن المدخل. استغربت الأمر

فليس من عادة سالم الجلوس في الركن البعيد هذا فهو عادة ما يفضل الجلوس إلى القرب من المدخل وكنت كلما طلبت منه الجلوس في أحد الأركان البعيدة يجاوبني" هنا أحسن، خلينا وسط الناس، لاتسجنا هناك".

توجهت إلى حيث كان يجلس وبمجرد وصولي إلى هناك اتضح لي سبب جلوسه في ذلك المكان. لقد اصطحب فتاة غاية في الجمال معه ودون أن يقدمني لها أيقنت بأنها "كارلا" فعلاً كان معه حق عندما وصفها بأنها ملاك في غاية الرقة. أمضينا بعض من الوقت في تبادل الحديث والاستماع لوجهات النظر المختلفة حول أوضاع البلد الاقتصادية والاجتماعية. قادنا الحديث ولا أعرف كيف للتحدث عن سكان تلك القرية المنسية والمأساة التي يعيشونها. وصفت لسالم و كارلا ما رأيته في ذلك اليوم بكل تفاصيله. أحسست بأني قد اضجرتهم بحديثي ذلك فهم قد جاءوا إلى هنا من أجل التسلية والاقتراب من بعضهما وها أنا أسبب لهما الملل بالحديث عن أمور لا تعنيهم:

- اعذروني فقد انجرفت في الحديث دون وعي مني ولا بد أنني قد سببت لكما الملل.

- لا أبدًا على العكس أرجو أن تخبرني كل شيء عن تلك القرية بالتفصيل، لا تبخل علي بشيء أخبرني كل شيء.

أبدت كارلا حماسة غريبة لمعرفة كل شيء عن تلك القرية

وسكانها وبعد أن وصفت كل شيء لها بدقة تامة قالت:

- متى يمكننا الذهاب الى هناك؟

- تعنين أن نذهب إلى القرية؟

- طبعًا، أريد ان نذهب إلى هناك في أقرب وقت.

- يمكننا الذهاب إلى هناك يوم الجمعة القادم إذا رغبتي بذلك.

- سالم ما رأيك؟ هل يوم الجمعة مناسب لك؟

بدى الاستغراب واضحًا على وجه سالم لكنه لم يمانع في الذهاب إلى القرية في يوم الجمعة. يبدوا أنه لا يستطيع أن يرفض أي طلب تطلبه كارلا، ملعونٌ أبو الحب!.

التقينا يوم الجمعة في الوقت الذي تمّ الاتفاق عليه وتوجهنا إلى القرية. بمجرد وصولنا إلى هناك أخرجت كارلا كاميرا من حقيبتها وبدأت بالتقاط الصور لكل شيء حولها. أصابني ذلك بالغضب فكل ما يهم هذه الفتاة المرفهة هو التقاط الصور.. لقد كنت مخطئًا عندما اعتقدت أن منظر هؤلاء المساكين سيؤثر فيها لكن للأسف ها هي تجوب المكان

obeikan.com

لالتقاط الصور غير عابئة بمأساة البشر أمامها، وكأنها تلتقط الصور لحيوانات في أقفاص حديقة الحيوان. لم أعد قادرًا على تحمل ما تقوم به وأردت أن أوقفها لكني لم أرغب بإغضاب سالم.

استمرت كارلا في التقاط الصور وكان غضبي واستيائي يتصاعد مع كل صورة تلتقطها إلى أنه لم يعد بإمكاني الانتظار، توجهت إلى سالم وطلبت منه أن يطلب من صديقته المدللة أن تتوقف عن أفعالها اللامسؤولة لكن رده علي أثار استغرابي:

- اتركها تفعل ما تشاء يا خالد.

أصابني جوابه ذلك بالصدمة ولكني آثرت الصمت، فعلاً أن الحب يفقد الإنسان قدرته على الحكم على الأمور بطريقة صحيحة. لم أتمكن من البقاء لمشاهدة ما كان يحدث فتوجهت إلى السيارة وجلست في داخلها والغيظ يملأ نفسي. لاحظ سالم ذلك فلحق بي محاولاً استطلاع سبب مغادرتي للمكان:

- ما بك تجلس هنا لوحدك يا خالد؟

- لا شيء، فقط أريد البقاء لوحدي.

- هل هناك ما أغضبك؟

obeikan.com

- لا أبدًا، هل حدث أي شيء يدعو للغضب؟ كل شيء على ما يرام وصديقتك تسلي وقتها بالتقاط الصور. ،ا بد أنها ستعمل على تزين إحدى حقائبها بتلك الصور.

لم يتفوه سالم بأي كلمة وغادر المكان على الفور وقام باصطحاب كارلا وانطلقنا في طريق العودة إلى عمان، جلست

في المقعد الخلفي للسيارة ولم أتفوه بأية كلمة طوال الطريق. لم يتوقف سالم وكارلا عن الكلام ومغازلة بعضهما بعضًا غير مهتمين لوجودي، طبعًا لا يهمهم أي شيء فهم من أبناء الذوات.

عدت إلى منزلي في تلك الليلة مصابًا بمزيج من الغضب والإحباط والشعور بقلة الحيلة. خسارتي كانت مزدوجة فأنا من ناحية خسرت الأمل الذي كنت قد تعلقت به بأن أتمكن من مساعدة أولئك المساكين الذين نستهم البشرية خلفها. حماسة كارلا التي اعتقدت أنها منصبة على قضيتهم اتضح أنها مجرد رغبة في الحصول على بعض الصور التي ربما ستضيفها إلى ألبوم صور سفراتها المتعددة، فما هم بالنسبة لها سوى جولة أخرى في سجل جولاتها السياحية.

أما خسارتي الأكبر فهي خسارتي لصديقي الذي كان الأقرب إلى نفسي. أكاد لا أصدق أن سالم قد تغير إلى هذه الدرجة. خسارة الأصدقاء

وخسارة الأمل أكبر خسارة يمكن أن يمنّى بها الإنسان. أحسست في تلك الليلة وكأن كل حياتي انهارت أمام عيني وأنا عاجز عن فعل أي شيء. لم أعد قادرًا على البقاء في المنزل فجدرانه بدأت تخنقني وبدأت أصاب بالدوار. اندفعت خارجًا من المنزل لأهيم على غير هديٍ في الطرقات. كدت أن أُدهَس عدة مرات فأنا قد كنت أعبر الطرق غير منتبه للسيارات المتجهة نحوي. غشاوة سوداء أسدلت على عيني بحيث لم أعد أرى ما حولي. ظلام دامس يحيط بي من كل جانب حتى غدوت كمن سكن في جُبٍّ سحيق أو رَمسٍ مقفل. كنت أهرب من الظلام إلى الظلام. لا أعرف كم أمضيت من الوقت تائهًا في الطرقات! أو كيف وصلت إلى هنا!.

منظر رائع للشمس وهي تنهض من نومها وترتفع ببطء من بين تلال عمان حتى وصلت إلى عرشها السماوي محولة رؤوس الجبال إلى أنشودة للضياء وبيوت عمان التي تتسلق الجبال إلى مكعبات من نور. وجدت نفسي أجلس بين أعمدة جبل القلعة المطلة على المدينة التي بدأت تصحو رويدًا رويدًا وبدأت الحياة تدبّ بها. منظر رائع لمدينة أروع. أحسست بأن الأعمدة من حولي أيضًا بدأت تصحو من نومها لتغسل وجهها بأشعة الشمس الذهبية وتبدأ يومًا جديدًا من حياتها التي امتدت عبر آلاف السنين. كل شيء حولي بدا جميلاً. غريب أمري فها أنا في لحظات أنتقل من أسفل السافلين إلى قمة الكون. جلست في مكاني مستمتعًا بهذا الانسجام الرائع بين عناصر المكان. الجبال والبيوت

والأعمدة ذابت جميعها تحت أشعة الشمس مُشكِّلة لوحة فنية مرسومة بريشة ربّ الكون.

ياه ما أجمل هذا المنظر!. كم أتمنى أن أبقى جالسًا في هذا المكان مستمتعًا بالمنظر البديع المتجلي أمامي. كم رغبت بأن ألقي بحياتي وكل ما فيها خلفي وأمضي حياتي بين هذه الأعمدة حتى أتوحد معها وأصبح واحدًا منها. هناك الحياة بكل ما فيها من مآسٍ وشقاء وعناء، وهنا الفردوس بكل ما فيه من جمال وهناء ورخاء. حلقت كالطير في فضاء الإبداع الإلهي مبتعدًا عن كل ما حولي. ارتفعت مع أشعة الشمس فوق جبال المدينة، معانقًا كل بيوتها. لم يُعدني من عالمي الرائع ذلك سوى الضحكات المتعالية من حولي. أطفال وكبار يمرون بي، ينظرون إليّ، يطلقون بعض الضحكات ثم يكملون سيرهم. بدأت أعود رويدًا رويدًا إلى هذا العالم الأرضي حتى اكتشفت سبب تلك الضحكات.

عدت مسرعًا إلى المنزل بعد عناءٍ شديد للحصول على سيارة أجرة تقلني إلى هناك. كلما أشرت بيدي إلى إحدى سيارات الأجرة كان السائق ينظر إليّ ويطلق ابتسامة ساخرة ثم يستمر في سيره. لا بد أن منظري أثار الشفقة في نفس أحد المارين بالمكان فاقلني إلى منزلي.

يا إلهي! كيف خرجت من المنزل على هذه الهيئة! شعري منكوش كالمقشة التي كانت تستعملها جدتي لتنظيف حوش المنزل، أنتعل فردة

حذاء سوداء في قدمي اليسرى وفردة بنية اللون في القدم اليمنى، مرتديًا بنطال أحدثت به المنظفات بقع بيضاء وحمراء، تي شيرت يظهر أكثر مما يخفي من جسدي من كثرة الثقوب. يا إلهي أبدو كالمتسول! كيف لم أنتبه لنفسي عندما غادرت المنزل. لا أعلم سبب تعلقي بملابس المنزل الرثة هذه فأنا أمتلك غيرها الكثير لكني دومًا أجد نفسي منجذبًا لارتداء هذه الخرق الممزقة فهي تشعرني بالارتياح وما الضير في ذلك ما دمت أرتديها في المنزل ودون أن يراني أحد. انتابتني نوبة من الضحك وأنا أقف أمام المرآة وأنظر إلى صورة المهرج المنعكسة فيها. فعلاً شر البلية ما يضحك. تحول ضحكي إلى الشعور بالخجل الشديد فلا بُد أن كل من رآني على تلك الهيئة سيجعل مني حديث مجالس المدينة ثم تحولت إلى الشعور بالغضب على من رآني فقد كان الأجدر بهم أن يحاولوا مساعدتي لا أن يسخروا مني. ثوانٍ معدودات انتقلت فيها من الضحك إلى الخجل ثم إلى الغضب. عادت إلى ذهني فكرة أنني مصاب بالانفصام فلا يمكن أن أكون شخصًا سويًا وأنا أضحك حينًا ثم أغضب في لحظات.

ذهبت للاستحمام لأغسل عن جسدي ما علِق به من أوساخ وأغسل روحي من الشعور بالحزن والخجل والغضب. فتحت خزانة الثياب لارتداء الملابس النظيفة. مددت يدي إلى داخل الخزانة لإخراج بعض الملابس فسقطت على الأرض من الرف الأعلى علبة خشبية ملفوفة

بكيس ورقي اختفى تحت التراب الذي تجمع عليه عبر السنين. تناولتها من الأرض. نفضت التراب عن الكيس وقمت بإخراج العلبة منه.... يااااه لقد مرت سنين طوال لم استعمل خلالها الألوان والفرشاة. عدت بذاكرتي إلى أيام المدرسة والمرسم الجامعي حين كنت أمضي معظم أوقات فراغي مستمتعًا بالرسم. لماذا توقفت عن ذلك؟ فلقد كان يدخل السرور إلى نفسي. فتحت العلبة وأمسكت بالفرشاة لكني شعرت بأني قد أصبحت غريبًا عنها بل أحسست بأنها تحاول الهروب من بين أصابعي. تفقدت الألوان فإذا بها قد جفت تمامًا وتحولت إلى أحجار.

أعدت الفرشاة إلى العلبة وأعدت العلبة إلى مكانها في داخل الخزانة. ارتديت ملابسي وهممت بالخروج لتناول بعض الطعام فقد بدأ الجوع يقرصني. وضعت يدي على مقبض الباب لكني عدت مهرولاً إلى الغرفة. وقفت أمام المرآة للتأكد من أني قد ارتديت ملابس ملائمة للخروج فأنا لا أريد أن أجعل من نفسي أضحوكة مرة أخرى. بعد أن تأكدت من أنني ارتديت ملابس مناسبة غادرت المكان ولكني لم أتوقف عن تفقد ملابسي بين الحين والآخر للتأكد من أنني لم أرتدي الخِرَق تلك فلقد أصابني خروجي في الأمس بالملابس الرثة بالارتياب.

وجدت نفسي بعد أن أنهيت تناول الطعام أتوجه دون وعي مني إلى إحدى المكتبات وأقوم بشراء ألوان زيتية وفرشٍ للرسم متعددة الأحجام

والأشكال وعدد من الإطارات الخشبية التي يُشد فوقها القماش المخصص للرسم. شيءٌ ما أثار في داخلي الرغبة للرسم. عدت إلى منزلي وباشرت على الفور بإخراج أدوات الرسم وأمضيت بعضًا من الوقت أتأملها ثم بدأت مترددًا بخلط الألوان استعدادًا للعودة لممارسة هوايتي القديمة. مرَّ زمن طويل لم أمسك فيه فرشاة الرسم ولا أعلم إذا ما كنت لا أزال قادرًا على الرسم بالألوان.

ما هي إلا لحظاتٍ حتى وجدت يدي تضع أول الخطوط على اللوحة ثم بعد ذلك تتابعت الخطوط والألوان. انهمكت في الرسم حتى انعزلت كليًا عن العالم الذي حولي وتوحدت مع فرشاتي وألواني. أمضيت عدة ساعات وأنا منكب على لوحتي التي كانت معالمها تظهر شيئًا فشيئًا. اصبحت أتشوق للعودة إلى منزلي كل مساء بعد انهاء العمل لأبدأ بالرسم.

أنهيت لوحتي الأولى بعد أسبوع من مباشرتي برسمها ودون أي تفكير مني وجدت نفسي أبدأ برسم لوحة أخرى. مضت الأيام سريعة دون أن أنتبه إلى أن موعد نهاية المشروع قد حان وبالتالي فإنني سأصبح في الأسبوع القادم بلا عمل. لم أفكر كثيرًا فيما سيحل بي بعد ذلك فقد وجدت متعة وسعادة منقطعة النظير في ممارسة الرسم. أصبحت الألوان والفرشاة عالمي الخاص الذي ينتشلني من هذا العالم القاسي. عدة

أسابيع وأنا منكب على الرسم لم استمع خلالها لأخبار العالم الخارجي ولم أطالع خلالها أي من الصحف اليومية وبذلك عشت في عزلة تشبه عزلة الناسك مارست خلالها شعائري الخاصة. أصبحت الفرشاة والألوان معبدي الذي ألجأ اليه بشغف وفرح. كنت أحمل أدواتي وأنتقل من مكان إلى مكان وأرسم مدينة عمان وأحيائها بكل تفاصيلها.

في اليوم الأخير للمشروع دعاني مالك إلى مكتبه وشكرني على جهودي في العمل واجتهادي من أجل تسليم المشروع في

موعده. لقد كان كريمًا جدًا معي في إبداء الشكر وكذلك في مكافأة نهاية الخدمة السخية التي منحني إياها. لقد كانت كافية لسد احتياجاتي لعدة أشهر ولذلك فأنا لم أفكر كثيرًا بالمستقبل وانهمكت بدل ذلك في ممارسة الرسم. تحول منزلي الصغير إلى ما يشبه المرسم. عشرات اللوحات التي تملأ المكان حتى لم يعد فيه مكان لموطئ قدم. عالم جميل من الألوان يملأ المكان.

أثناء انهماكي في الرسم طرق أحدهم الباب، لا بد وأنه مالك المنزل وقد أتى لتحصيل الإيجار لهذا الشهر، فتحت الباب وقد أعددت المبلغ المطلوب.

- عماد، أهلاً وسهلاً. هذه مفاجئة سارة. تفضل.

لقد مرت عدة شهور لم أقم خلالها بزيارة عماد وقد أتى اليوم للاطمئنان علي. قمت بإزاحة بعض اللوحات من مكانها كي أفسح مجالاً له للجلوس. جلس على طرف المقعد وقد أدهشه منظر المنزل والكم الكبير من اللوحات التي تملأ كل زواياه وأنحائه.

- أرى أنك قد عدت لممارسة الرسم. ماذا ستفعل بكل هذه اللوحات؟

لم أعلم بماذا أجيبه فأنا لم أفكر قط بما سأفعله بهذه اللوحات فأنا كنت فقط أقوم بالرسم لأنه يشعرني بالسعادة وينسيني العالم من حولي.

- في الحقيقة يا عماد أنا لم أفكر إطلاقًا بما سأفعله بهذه اللوحات.

- حقًا!

- فعلاً يا عماد أنا لم أفكر لماذا أرسم أو ما سأفعله باللوحات بعد ذلك.

- لماذا لا تقوم بعرضها في مكان ما وربما تعمل على بيعها.

- لا أعتقد بأن هناك من سيرغب باقتناء مثل هذه اللوحات.

- أنت مخطئ يا خالد فهناك العديد من الأشخاص الذي يتمنون امتلاك إحدى هذه اللوحات. إنها فعلاً رائعة يا خالد ومن الخطأ أن تبقيها مدفونة بين جدران منزلك.

- سأفكر بذلك يا عماد.

- لا داعي للتفكير، يجب عليك أن تبدأ بالبحث عن مكان لعرضها. لا تضيع الوقت ولا تحرم الناس من متعة مشاهدة المدينة الجميلة من خلال لوحاتك.

بدأ اقتراح عماد يجد صداه في نفسي، فلماذا لا أعمل على عرضها ومحاولة بيعها وما الخطأ في ذلك! أخبرني عماد أن بإمكانه أن يساعدني في مسعاي ذلك فهو على صداقة مع صاحب أحد البازارات التي تبيع اللوحات والتحف الشرقية. وفجأة ومن دون أي مقدمات قفز عماد من مقعده:

- هيا بنا..

- إلى أين؟

- دعنا نأخذ بعض لوحاتك ونذهب لعرضها على صاحب البازار.

- الآن؟!

- ولمَ لا! هيا بنا. لا داعي للتردد.

قمنا بحزم بعض اللوحات وتوجهنا إلى البازار وقمنا بعرض اللوحات عليه. لم يبدُ صاحب البازار متحمسًا للفكرة لكن عماد أقنعه بانه لن يخسر شيء وكل ما عليه أن يقوم بعرضها في إحدى زوايا البازار فإذا تمَّ بيعها ينال عمولته وإذا لم يتم بيعها فبإمكانه إعادتها في أي وقت. وافق صاحب البازار على عرض عماد ربما لاقتناعه بالفكرة أو ربما خجلاً من صديقه عماد الذي كان متحمسًا للفكرة. شعرت بالخجل من نفسي فأنا لم أقم بتقديم أي شيء لعماد في منزلي فأنا لم أقم حتى بتقديم فنجان قهوة له. اعتذرت من عماد ودعوته لتناول القهوة في أحد المقاهي القريبة من المكان ولم يكن أمامه إلا الموافقة على ذلك بسبب إصراري. أخبرني عماد بأنه قد عاد للعيش مع زوجته من جديد. لم يبدُ سعيدًا جدًا بحياته معها لكنه كان قد قرر أنه من الأفضل للطفلة أن تحيى في كنف والديها وقد اقتنع تمامًا بأنه يجب عليه تحمل أي شيء في سبيل سعادة طفلته.

أمضيت الأيام التالية في ممارسة الرسم غير مكترث بما سأفعله بها حتى نسيت تمامًا اللوحات التي كنت قد أودعتها لدى صاحب البازار إلى أن قام عماد بزيارتي في منزلي الذي تحول إلى مستودع للوحات.

- لماذا هاتفك مغلق يا خالد؟

- في الحقيقة لقد نسيت تمامًا أني أمتلك هاتف. فأنا لم استعمله منذ عدة أسابيع.

- لقد كنت أحاول الاتصال بك منذ عدة أيام.

- خير إن شاء الله؟

- لقد قام صاحب البازار بالاتصال بي منذ عدة أيام فلقد تم بيع جميع لوحاتك وهو يرغب بأن تقوم بتزويده بالمزيد منها.

- حقًا!

- نعم يا خالد، ألم أقل لك أن لوحاتك مميزة وهناك العديد من الأشخاص الذين سيرغبون باقتنائها.

لم أكد أصدق ما يقوله لي عماد ولولا أني أعرفه جيدًا وأعرف تمامًا أنه لا يحب المزاح بمثل هذه الأمور لاعتقدت بأنه يسخر مني. قمنا بحزم مجموعة أخرى والتوجه إلى البازار. استقبلني صاحب البازار بحفاوة وقام بتسليمي مبلغ من المال ثمن اللوحات التي تم بيعها بعد أن خصم قيمة عمولته فوضعتها في جيبي دون ان أقوم بعدها.

obeikan.com

- ألن تقوم بعد النقود؟

- لا داعي لذلك فأنا أثق بك.

قمت بإعطاء اللوحات الجديدة لصاحب البازار ثم غادرت المكان بعد أن اتفقنا على أن أقوم بزيارته بعد أسبوعين لمعرفة مصير اللوحات الجديدة وإذا ما كان يرغب بالمزيد منها. لم أكترث كثيرًا فيما إذا كانت اللوحات ستباع أم لا ولكني استمريت في الرسم فأنا بدأت أجد نفسي في ممارسة هذه الهواية.

كنت أقوم بزيارة البازار كل أسبوعين لأقبض ثمن اللوحات وتزويده بالمزيد منها. كانت اللوحات تلقى رواجًا لا بأس به وكانت تُدرُّ علي دخلاً يكفي لسد احتياجاتي. اقترح علي عماد أن أقوم بفتح محل خاص بي لبيع اللوحات وممارسة هوايتي به بدل الاستمرار بالعمل في المنزل. لم أتشجع كثيرًا لهذه الفكرة فأنا أقوم بالرسم فقط للتسلية والمتعة لكني لم أقم بإقفال باب التفكير في اقتراحه نهائيًا.

وبدئت الفكرة تختمر في عقلي مع مرور الوقت. لمَ لا؟ فأنا أجد سعادة في الرسم فلماذا لا أتخذ منه مهنة لي؟ ولكني حاصل على شهادة الهندسة فماذا سأفعل بها؟ تذكرت ما قاله الطفل لي عن حصر نفسي في الدور الذي أوديه وكيف أن ذلك الأمر قد يحرمني من ممارسة الأدوار

الأخرى التي قد أجد فيها سعادتي. لقد اشتقت كثيرًا إلى ذلك الطفل وإلى الحديث معه. فعلاً لقد كان لوجوده أثر كبير في نفسي وقد كان وجوده يملأ علي المكان. بدأت بتقليب فكرة افتتاح محل لبيع اللوحات على جميع أوجهها. كنت أتشجع للفكرة أحيانا وأَهُم بالبدء بتنفيذها ثم أفتر عن ذلك في أوقات أخرى. من جديد تذكرت حديثي مع الطفل حين قال لي أنني يجب أن افكر بالأمور بقلبي لا بعقلي. قلبي يخبرني بأنها فكرة جيدة لكن عقلي يحذرني منها. هل أستمع لعقلي أم لقلبي؟

زارني عماد مجددًا في الأسبوع الفائت وأعاد طرح الفكرة علي، بل وجد أيضًا المكان المناسب لتنفيذها:

- لقد تم افتتاح القرية الثقافية في حدائق الملك حسين في شارع المدينة الطبية ولديهم العديد من المحلات المخصصة لبيع اللوحات فلماذا لا تتقدم بطلب للحصول على أحد هذه المحلات؟

- لكني لا أملك الكثير من المال لذلك يا عماد؟

- هذه ليست عقبة فالمحلات إيجارها مناسب فالهدف من إنشائها هو دعم الحركة الفنية والفنانين.

- لا أعلم يا عماد لا بد لي من التفكير في ذلك.

- الموضوع ليس بحاجة لتفكير أنت تستمتع بالرسم وإيجار المحلات رمزي. سيساعدك ذلك على تأمين دخل مناسب الى أن تجد عملاً آخر.

- دعني أفكر في ذلك يا عماد.

- لا بأس لكن على الأقل قم بتقديم الطلب حتى لا تضييع الفرصة من يدك ثم يمكنك التفكير كما تريد.

بدت الفكرة منطقية لي وقمت في صباح اليوم التالي بالتوجه إلى مكتب الأمانة وقمت بتقديم الطلب. لم تمضِ سوى أيام قليلة حتى تلقيت الرد بالقبول. ساعدني عماد بخبرته لاستصدار التراخيص اللازمة واستصدار السجل التجاري وبدون تخطيط مسبق وجدت نفسي أفتتح مَرسمًا وأقوم ببيع اللوحات. أصبحت أمضي معظم وقتي في محلي منكبًا على الرسم وبيع اللوحات. لم يكن الدخل الذي أحصل عليه مرتفعًا لكنه كان كافٍ لسد جميع احتياجاتي. بدأت أشعر بالسعادة فأنا الآن أقوم بعمل أحبه واستمتع به وفي نفس الوقت اجني ما يكفيني من المال فقررت أن استمر في عملي هذا فلا يوجد في الدنيا ما هو أفضل من أن يقوم الإنسان بعمل يحبه.

في المساء طرق أحدهم باب منزلي، لا بد أنه عماد فهو عادةً ما يقوم بزيارتي في مثل هذا الوقت من المساء بعد إغلاق محله الخاص ببيع

الأجهزة النقالة. لم يصب توقعي فعندما فتحت الباب تفاجأت بشخص آخر. كان سالم يقف في الباب. وقفت لوهلة دون أن أتفوه بأي كلمة. بادرني سالم القول:

- ألن تدعوني للدخول؟

- عفوًا يا سالم تفضل.

كانت قد مرت شهور عدة لم أتكلم مع سالم أو ألتقيه منذ ذلك اليوم الذي قمنا فيه بزيارة القرية المنسية. تبادلت معه بعض الأحاديث السطحية فأنا أصبحت أشعر بأنه غريبٌ عني بعد ذلك اليوم الذي اتخذ فيه صف صديقته المدللة غير آبه بمشاعر سكان القرية المساكين، كان سالم قد جاء لدعوتي لحضور حفل خطوبته على فتاته المدللة، هنأته ببرود ويبدو أنه احس بأني غير سعيد بهذا الخبر.

- لا يبدو أنك سعيد لسماع الخبر، لقد اعتقدت أنك ستفرح بذلك!

- المهم أن تكون أنت سعيدًا وراضيًا عن ذلك.

لاحظ سالم أنني اتحدث اليه بنوع من البرود فقرر المغادرة مؤكدًا علي بضرورة حضور الحفل. لو كان قرر أن يرتبط بفتاة غير تلك المدللة

عديمة الإحساس لكنت أسعد الناس لسماع الخبر لكن وقد قرر أن يرتبط بكارلا فأنا غير معني بالأمر.

تفاجأت في صباح اليوم التالي بسالم وبصاحبته عديمة الإحساس تلك يزوروني في مرسمي. أصبت بنوع من الصدمة ولم أعرف كيف أتصرف لكني رحبت بهم ودعوتهم للجلوس.

- لقد جئنا اليوم لنبارك لك بافتتاح مرسمك. خطوة مباركة إن شاء الله.

- شكرًا لكما..

- وأيضًا نريد أن نطلعك على أمرٍ آخر..

أخرجت كارلا من حقيبتها الباهظة الثمن ألبومًا للصور. كل ما تفكر به تلك المدللة هو الصور. هل تكبدت عناء المجيئ إلى هنا من أجل أن تريني بعض الصور التي لا تكف عن التقاطها؟ ألا يوجد في حياتها شيء آخر سوى الصور. مددت يدي وتناولت ألبوم الصور من يدها وقمت بتقليبها دونما اهتمام ثم أعدته لها. نظرت إليّ بنظرة فيها نوع من الاستغراب إن لم أقل الاستنكار. صور جميلة لبيوت بسيطة على شكل أكواخ اسقفها من جذوع الأشجار التي تم تغطيتها بسعف النخل ومن فوقها طبقة من الطين. تحيط بالبيوت بعض الأشجار المثمرة أما الطرق فقد تم رصفها

openkan.com

بالحجارة دون أن يتم تغطيتها بالإسفلت. منطقة جميلة لا بد أنهما قد قاما بزيارتها معًا ولكن لا أعرف لماذا أعتقدا بأني سأكون مهتمًا برؤية صور رحلاتهما السياحية.

- ما بك يا خالد؟ ألم تعجبك الصور؟

- إنها جميلة أرجو أن تكونا قد استمتعتما بالإقامة هناك.

- خالد ما بك ألا تميز المكان؟

- هل من المفترض أن أميزه؟

أعاد سالم ألبوم الصور إليّ مرة أخرة وقال:

- انظر جيدًا فلا بد أنك تعرف المكان جيدًا فأنت من أرشدنا إليه.

أصبت بالحيرة وحاولت أن أتذكر كيف ومتى أرشدتهما إلى ذلك المكان؟!

- أعذرني يا سالم فأنا لا أذكر هذا المكان، أين هو؟

- لقد بدأت تحيرني يا خالد، ألا تذكر تلك القرية التي قمنا بزيارتها في العام السابق؟

- أية قرية؟

obeikan.com

- القرية المنسية كما كنت تسميها.. لكنها لم تعد منسية الأن.

- أتقصد.....

- نعم أقصد تلك القرية التي كان سكانها يتخذون من ظلال الأشجار بيوتًا لهم.

- يا إلهي! كيف تغير حالها إلى هذا الشكل؟

- إنها قصة طويلة سأخبرك بها لاحقًا.

بدأت الحماسة تعود إليّ من جديد وقلت لسالم:

- لا أرجوك أن تخبرني بكل شيء الآن. لقد آثرت فضولي لمعرفة ما حدث.

- حسنًا لكن لا بد لك من أن تكون صبورًا إذا ما أردت سماع كل شيء.

- كلي آذان مصغية.

- لابُد أنك تذكر أن كارلا قد قامت بالتقاط بعض الصور في ذلك اليوم. وكما تعلم فإن كارلا تعمل في مجال الصحافة.

قاطعته وقلت:

- لا لم أكن أعلم ذلك!

- لا يهم ذلك الآن، لقد استطاعت كارلا من خلال عملها في مجال الصحافة وعلاقاتها مع الصحف المحلية من نشر مجموعة من التقارير عن تلك القرية ومأساة سكانها وذلك في عدد من الصحف المحلية والمواقع الالكترونية وقد تفاعل الكثير من الناس مع تلك التقارير وعبر الكثيرون عن رغبتهم في تقديم العون لسكان تلك القرية، غريب ألم تقرأ ذلك في الصحف يا خالد!

- في الحقيقة لقد انقطعت عن قراءة الصحف منذ فترة طويلة فقد كنت منهمكًا في ممارسة الرسم حتى أني انقطعت عن العالم الخارجي بشكل شبه كامل. يبدوا أنه قد فاتني الكثير، أرجوك ان تكمل كيف تم تحويل تلك القرية إلى هذه الصورة.

- لا بأس، كما قلت لك أن التقارير الإخبارية المصورة التي أعدتها كارلا وزملاؤها قد أدت إلى تفاعل الكثيرين مع قضية تلك القرية، وتلقت الصحف العديد الاتصالات من أشخاص وهيئات يرغبون في تقديم العون. كان لابُد لنا من إيجاد آلية مناسبة لجمع التبرعات ولكننا رغبنا أن تكون المساعدة غير مقتصرة على تقديم بعض المساعدات الأنية بل أن تكون شيء يمكن سكان تلك القرية من العيش في ظروف مناسبة

على الدوام وبعد الكثير من الاجتماعات والمداولات قررنا أن نقوم بإنشاء قرية نموذجية في المنطقة على أن تكون منسجمة مع طبيعة المكان.

واجهتنا في البداية بعض الصعوبات في كيفية جمع الأموال اللازمة للمشروع وضمان استمرارية الدعم إلى أن توصلنا إلى أن افضل طريقة لذلك هو إنشاء جمعية خيرية تقوم بجمع التبرعات وتشرف على تنفيذ الفكرة، وهذا ما تم. تمكنا من خلال الجمعية من جمع مبلغ لا بأس به من المال. واجهنا مشكلة أخرى بعد ذلك وهي أن الأرض التي يقطن عليها السكان ملك للدولة. قمنا بمخاطبة الجهات المعنية وبعد الكثير من الأخذ والرد حصلنا على الموافقة ببناء المساكن للسكان وعلى تفويض سمح لهم باستغلال الأرض شريطة أن تبقى ملكيتها للدولة. ومنذ عدة أشهر والعمل قائم على قدم وساق لإنجاز المشروع إلى أن وصل إلى الوضع الذي تراه في الصور. لقد راعينا في تنفيذه أن يكون منسجمًا مع البيئة المحلية ولذلك فقد قمنا باستخدام الطين والحجارة في البناء واستخدام جذوع الأشجار التي كانت ملقاة في أكثر من موقع في المكان لتشييد الأسقف. لم نقم بقطع أي شجرة من المكان ولم نضر بأي من النباتات بل على العكس قمنا بزراعة الأشجار المثمرة بالقرب من البيوت وفي ساحاتها كي يستفيد السكان من ثمارها. لم نحتج لإحضار عمال البناء من الخارج فقد قام سكان القرية رجال ونساء بعملية البناء أما المهندسون فقد كانوا متطوعين. كل شيء تم بدون تكلفة باهظة. كما

قمنا بتدريب سكان القرية على بعض الحرف اليدوية التي تساعدهم على تأمين قوتهم والتي نعمل من خلال الجمعية على تسويقها لصالح السكان.

- هذا عمل رائع يا سالم، شكرًا لكما على ما قمتما به.

شعرت بسعادة غامرة لمعرفة ما قام به سالم وكارلا من أجل سكان تلك القرية لكني أصبت أكثر بالخجل من نفسي لإساءتي الظن بكارلا في ذلك اليوم. أتمنى الآن أن تنشق الأرض وتبلعني. كما شعرت بالحزن لأنني لم أكُن جزءً من هذا المشروع، لقد حرمني غضبي في ذلك اليوم وإساءتي الظن بدوافع كارلا من أن أساهم بمساعدة أولئك المساكين. لو كنت قد أفصحت عن ما كان يدور في نفسي في ذلك اليوم وقمت بمناقشة الأمر بوضوح مع سالم وكارلا لكنت قد حصلت على الفرصة في أن أكون احد المتطوعين ولكنت قد حافظت على صداقتي مع سالم.

- سالم، كارلا....

- ماذا يا خالد.

- أنا....

- أنت ماذا؟

obeikan.com

- أنا مدينُ لكما بالاعتذار.

- الاعتذار عن ماذا يا خالد؟

- الاعتذار لكارلا أولاً لأني أسأت الظن في دوافعها لالتقاط الصور في ذلك اليوم ولك يا سالم لأني اعتقدت أن حبك لكارلا قد أعماك عن ما تقوم به وغيّرك.

- لا تهتم بذلك يا خالد ولا داعي للاعتذار، في الحقيقة نحن من يدين لك بالاعتذار لأننا لم نقم بإبلاغك بما كنا نخطط له ولم نشركك معنا في العمل.

عاهدت نفسي منذ ذلك اليوم على أن لا أسيء الظن بأحد وأن أقوم بمصارحة أي إنسان بشكوكي وظنوني، لقد تعلمت الكثير مما مررت به في الأشهر المنصرمة وتعلمت الكثير من ذلك الطفل ومن ما قام به سالم وكارلا. لكن الدرس الأكبر الذي تعلمته هو أننا لسنا بحاجة لأن نمتلك كل شيء من أجل أن نشعر بالسعادة. نحن نضيع الكثير من سنوات حياتنا في البحث عن المال وامتلاك الأشياء التي نعتقد بأنها ستشعرنا بالسعادة وبالتالي فنحن لا نحيى حاضرنا لأننا نمضيه في السعي وراء سراب المال والقلق على المستقبل. نعتقد بأننا نعمل من أجل تأمين مستقبلنا ولكنا في الواقع نضيع فرصة الاستمتاع بالحاضر. قد يكون

المال ضروريًا من أجل تأمين احتياجاتنا اليومية لكن أن يصبح هدفًا لحياتنا فهنا تكمن المشكلة وتكمن معظم مشاكل البشر وتعاستهم، لقد تيقنت الآن بأن السعادة تنبع من داخل الإنسان لا من الخارج وأن لا شيء في هذه الدنيا يمكن أن يمنح الإنسان السعادة ما لم يغير من نظرته للحياة وأهدافه فيها. الآن فقط تمكنت من فهم ما عناه الطفل في ذلك اليوم حين قال لي أنه لا يستطيع أن يحكم من أسعد "سكان القرية المنسية أم سكان البيوت الفارهة في الطرف الآخر".

فعلاً لقد كان محقًا عندما قال لي بأنه لا يستطيع أن يرى سوى الحجارة المشيدة والحديد السيّار أما داخل نفوس البشر فهو لا يستطيع أن يراه. قررت أن أستمر في عملي بالرسم والتوقف عن البحث عن عمل آخر. أنا الآن أشعر بالسعادة وممارسة هوايتي تعود علي بعائد يمكنني من دفع إيجار المنزل والحصول على احتياجاتي الأخرى. وماذا يريد الإنسان أكثر من مكان يأوي إليه والحصول على ما يسد رمقه من غذاء وماء وكما قال لي الطفل:

الماضي مات... والمستقبل لم يأتِ بعد، وما علي سوى أن أحيى الحاضر بملئه.